

ماكرانس فيرمين



8.5.2016

أفيون

رواية

ترجمة : ليلى بدر



ماكرانس فيرمين

أفيون

رواية

ترجمة: ليلى بدر



أفيون

Twitter: @ketab_n

◆ ماکزانس فیرمین

◆ أفيون

◆ ترجمة: لینا بدر

◆ جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

◆ الطبعة الأولى 2015

◆ الناشر: **دال للنشر والتوزيع**

سورية - دمشق - ص. ب: 29170

هاتف: 00963 936 092496

البريد الإلكتروني: n_hammdan@yahoo.com

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopying, recording, or any information storage and retrieval system, without permission in writing form the publisher

ولها ماكرزانتس فيرمين في مدينة
البيرفيل في العام 1968 عاش في باريس
وتونس، حيث عمل في مكتب الدراسات.
يهيش اليوم في السافوا العليا. هو مؤلف
" ثلج"، و" النحال" الحائزة على جائزة
بيل روما وجائزة مورا في العام 2001،
ومكذلك رواية أمازوف الحائزة على جائزة
أوروبا 1 في العام 2004، ترجمت رواياته
إلى العديد من اللغات ومنها الإيطالية
حيث يلاقى نجاحاً ساحقاً.

هو طريق بألف عطر وأخطار ألف أيضاً: ذاك الذي يبدأ من لندن لبلوغ بلاد الهند، ويتوه على نحو لا يمكن تداركه داخل إمبراطورية الصين. رحلة تدعى طريق الشاي.

للمرة الأولى، في العام ١٨٣٨، يذهب رجل مغامر في هذا الطريق، مصمماً على كشف سر الشاي الأخضر- والأزرق والأبيض، أنواع غير معروفة في إنكلترا. يلتقي أثناء رحلته بپيرل، التاجر الإيرلندي الثري، ووانغ، حارس الوادي المقدس، ولوشين، إمبراطور الشاي غير المرئي، ولوان، المرأة الصينية ذات العينين الزمرديتين، التي تحمل فوق كتفها وشم زهرة الخشخاش.

في نهاية سعيه، كان هناك الأفيون. حب لم يختره.

إلى جولي

"النفيون، يوسّع ما ليس له حدود، يطيل اللاهتاهي،

يفور في الزمن، يعوّق اللذة والهنوع البغيضة، الكنيبة، يهاند

الروح إلى ما فوق طاقتها."

شارل بودلييه

أزهار الشر

I

حياة شارل ستوو، مغامر الشاي، تحملك على الظن بأن المصادفة

ليست سوى شبكة عنكبوت، يأتي القدر أحياناً كي يعلق بها.

كان شارل ستوو شغوفاً بالتجارة وعاشقاً للشاي. شغف التجارة

لا يُلقن، وعشق الشاي يُكتسب مع الزمن.

في العام ١٨٣٨، لم يكن شارل ستوو يعرف شيئاً عن الأفيون. هو

من أولئك السادة الإنكليز الذين كان عيبتهم الوحيد استهلاك الويسكي

والسيجار، وفضيلتهم الأساسية ميل بسيط نحو حُسن الصيت وحب

العمل المتقن.

كان بيت آل ستوو مشهوراً في كل الإمبراطورية البريطانية،
وشارل ستوو الوارث للتقاليد والأحلام العائلية، في ذلك العصر- الذي
كان فيه السفر والتجارة مرادفين للمغامرة، قرر أن يبحر إلى الصين.
في سبيل ذلك، كان عليه أن يسلك طريقاً زكي الطيب من بين
أكثر الطرق عطراً وأشدّها خطراً في العالم. ذلك الذي يبدأ من لندن
مروراً بالهند، متابعاً إلى آسيا ليتوه على نحو لا يمكن تداركه في
الإمبراطورية السماوية.
رحلة كانت تسمى: طريق الشاي.

بدأ كل شيء قبل عشرين عاماً عندما قرر والده روبرت ستوو
مزاولة مهنة تجارة الشاي بأكثر الطرق شرعية. في العام ١٨١٦، اشترى
دكاناً في لندن على مسافة بضعة خطوات من نهر التايمز، وراح يبيع
للأبناء بلده إضافة إلى فيض التوابل والصندل والزعفران وعجائب
أخرى آتية من الشرق، إحدى النباتات، محاصيل أغراسها الفتية
المجففة والمنقوعة في الماء الساخن، تعطي ذلك المشروب المعطر الذي
يدعى الشاي. كان معروفاً بالطبع منذ قرون، لكن في ذلك العصر-
فقط صار استخدامه يومياً. أصبح الشاي تسليته. أحب أن يدرس عن
شجرة الكاميليا الصينية مختلف الأنواع، واشترى على الفور كل ما
استطاع البحارة أن يحضروه له من الصين والهند، وغدا بسرعة هائلة

التاجر الذي يستميل صفوة المجتمع اللندني، حتى أصبح بإمكان
دكانه أن يصبوا إلى هذه اللافتة الخلابة:

عطور الشاي الالف

في بداية القرن التاسع عشر، كانت الصين تنتج أفضل شاي في
العالم وتحتكر لنفسها تجارتها. كثيراً ما كانوا يتحدثون عن أسرار طريق
الشاي التي لم يتمكن أي كائن قط من أن يفلح باستكشافها. وكان
يقال أيضاً إنه لن يتمكن أحد أبداً من التوصل إلى اختراق قلب
الإمبراطورية كي يستخرج منها أسرارها. كما قيل إن كل من سلك هذا
الطريق لم يعد منه قط. كانت تُروى ألف حكاية وحكاية.

أما شارل ستوو فقد كان يبقى صامتاً، غير أنه كان يصغي
ويدرك شغف والده. وفي وقت مبكر ومن فوق سنواته العشر، كان
يرى نفسه سالكاً طريقه بين حدائق انشاي ممسكاً بيده رقاً يدون
عليه كل أسرار صناعة أفضل شاي في العالم.

على مرّ السنين، كشف رويبرت ستوو لابنه كل ما كان يعرفه عن هذا المشروب الغريب. فقد لاحظ أن الولد فطن لكل ما له علاقة بالشاي بشكل من الأشكال.

كان شارل لم يبلغ الحادية عشرة بعد، عندما سأل والده ذات صباح:

- منذ متى الشاي موجود؟

تهربّ التاجر في البداية من السؤال، غير أنه أمام خيبة ولده،

أفصح قائلاً:

- بحسب الأسطورة الشعبية، يبدو أنه ولد منذ وقت طويل في

الصين. وبطريقة جد غريبة.

- كيف ذلك؟

- سوف أحكيها لك. ولكن عدني ألا ترددها أمام إنسان إذ إن الأمر يتعلق بسرّ.

وعد شارل ألا يقول شيئاً، فهو ككل الأولاد في سنّه، كان يحب الحكايا والأسرار.

- في أحد الأيام، منذ أكثر من أربعة آلاف سنة من الآن، كان الإمبراطور شن نَنغ مسافراً مع حرسه في مقاطعة نائية في بلاده الشاسعة. ولما كانت الطريق طويلة وشاقة، طلب أن يستريح قليلاً في ظلّ الأشجار التي كانت تحميه من الشمس. توقفت القافلة، وجلس الإمبراطور متربعاً تحت شجرة غير معروفة. طلب في الحال طاس ماء مغلي، فلقد كان في غاية العطش وكان لا يعرف غير هذا المشروب كي يروي عطشه. سارعوا بإحضاره له. حينئذ سقطت ورقة في طاس الإمبراطور دون أن ينتبه، وعلى الفور ملأ بلعومه

طعم حلو ومرّ في الوقت عينه. نظر إلى قعر الطاس وقد ثار
فضوله. وجد ورقة لها عطر مدوّخ.

كان الشاي قد ولد للتوّ.

كان روبيرت ستوو يستفيض بالشرح حول أصول الشاي
وخصائصه. في المساء، بينما كان المستخدمون لديه ينضدون الحمولات
القادمة حديثاً من الشرق خلف الدكان، كان يتابع تلقين ابنه:

- أتري يا شارل، يوجد في العالم أربعة ألوان من الشاي. لسوء
الحظ لا يعرف الإنكليز سوى الشاي الأسود الذي بدأت زراعته في
مستعمراتنا، وبشكل رئيسي في آسام.

كان شارل يصغي إلى والده بانتباه مدهش.

- ما هي الألوان الأخرى؟

- الشاي الأزرق، الأخضر والأبيض. هذه الأنواع المختلفة الثلاثة

تأتي من نفس البلد: الصين. للشاي الأزرق طعم غريب، قريب من

طعم الشاي الأخضر. ويزرع في منطقة لا يمكن للمسافرين بلوغها.
الشاي الأخضر ذو النكهة العطرة والمرّة، يزرع تقريباً في كل مكان من
آسيا، لكن سرّ صناعته يبقى في أيدي الصينيين. أما بالنسبة للشاي
الأبيض، فهو الأندر والأغلى ثمناً من بينها كلها. يحكى أن الفتيات
العدراوات كنّ في الماضي يقطفنه بمقصات ذهبية، ويسكبه فيما بعد
مع ماء رقرق في طاس الإمبراطور. لا أحد يعرف أين تقع مزارع
الشاي الأبيض السريّة. أولئك الذين كشفوا السرّ، يقال إنهم أعدموا.

لزم الصبي الصمت طويلاً.

- هكذا إذًا، لا أحد يعرف سرّ تصنيع أنواع الشاي الثلاثة هذه؟

- لا.

حينئذ أطال شارل ستوو النظر إلى والده. نظرة تنمّ عن تصميم

وعزيمة، ثم قال:

- سأكون أنا ذلك

ذات مساء، بينما كان المطر يهمني فوق لندن، باغت روبرت ستوو ابنه يتفرج على قطرات المياه المنزلة ببطء فوق زجاج النافذة. قال له وهو يدنو منه بهدوء:

- هل تعلم أن فن الشاي هو موسيقا الماء؟

لم يفهم شارل ما الذي كان والده يعنيه بقوله هذا.

- ما علاقة الماء والموسيقا بالشاي؟

- ففكر جيداً واصغ. في البداية، هناك موسيقا المطر فوق

أشجار الشاي، هذا القرع الخفيف مثل طبله من نور أخضر-

تضربها مقارع السماء الفضية. تليها موسيقا القطاف، ترافقها

رقصة أوشحة القاطفات. فيما بعد، تأتي موسيقا ينبوع ماء بارد، لا

أسلس ولا أصفى. أخيراً، موسيقا المياها الساخنة، تُسكب برقة فوق أوراق الشاي.

- لماذا تقول لي كل ذلك؟

- لأنني حين أراك حاملاً، أتخيلك هناك، تحت أمطار الصين...بين

حدائق الشاي.

وضع روبيرت ستوو يده على كتف ابنه:

- هذه الرحلة، لم أتمكن من القيام بها.

- أعلم. تعيد لي ذلك دائماً. وأردف: هذه الرحلة، سوف أقوم

بها من أجلك. أقسم لك.

تنهد روبيرت ستوو طويلاً، ثم بعد صمت طويل:

- دعنا لا نتحدث عن هذا بعد الآن. هيا، حربي بك أن تتذوق

هذا الشاي.

مدّ نحو الصبي فنجاناً وهو يتسم.

رفع شارل بصره إلى والده وشرب جرعة من السائل الثمين تاركاً

القطرات ترنّ داخل صدره.

اعتاد شارل ستوو منذ مراهقته على شرب أكثر من خمسة عشر-

فنجاناً من الشاي في النهار. كان يمنحه طاقة خارجة عن المألوف وميلاً

مبكراً إلى التأمل. وكان يخال إليه بشكل خاص وهو يشرب الشاي بأنه

يتنشق عطر كل واحدة من النساء اللواتي قطفن له خصيصاً تلك

الأوراق الغريبة ذات الطعم الحلو والمرّ. عطر يثمل به دون أن

يصيبه الملل أبداً.

مرّت السنين والأفق مثقل بأحلام الرحلات البعيدة. لطالما كان

شارل يذهب إلى مرفأ لندن، ينظر بعين الحسد إلى البحارة وهم

ينزلون عن ظهر سفنهم حمولاتهم الغرائبية، ويرى موظفي شركة

ستوو يذهبون للتفاوض في المتاجر الإنكليزية.

أخيراً، في العام ١٨٣٨ ، في سن الثالثة والثلاثين، مدفوعاً من قبل

والده ومن الوعد الذي قطعته وهو طفل، ركب البحر نحو طريق

الشاي.

ذات يوم شتوي، غادر لندن وأرصفة نهر التايمز نحو سيلان في جنوب الهند. سافر على متن سفينة تجارية كانت تحمل اسماً موحياً بالنسبة إليه: "أمفيتريت".*

أوصلته أول مرحلة إلى الطرف الآخر للإمبراطورية البريطانية. بعد رحلة بحرية دامت عدة أشهر، توجب عليه خلالها النزول على طول المحيط الأطلسي وأن يدور حول أفريقيا من جهة رأس الرجاء الصالح، ثم يصعد ببطء في المحيط الهادئ كي يصل في النهاية إلى تلك الجزيرة ذات المناخ الحار والرطب، حيث ينمو فيها كل شيء بوفرة. زار هناك تجار التوابل الهندية في مرفأ

* أمفيتريت: من الميثولوجيا، آلهة البحر، أو البحر نفسه.

كولومبو. وبالمال الذي عهد إليه به والده، اشترى الفلفل الحار وجوز الطيب والزعفران والفانيليا وكبش القرنفل. كان يعتزم إرسالها إلى أوروبا. فكّر أيضاً أن يتزود بالشاي المنتج محلياً لكنه تراجع عن ذلك بقدر ما رآه رديئاً.

طلب من منتج إنكليزي اسمه تايلور إيضاحات بشأن نوع الشاي السيلاني. أجاب الرجل:

- المنتجات الجيدة قليلة جداً هنا. في سيلان، وجدوا أن القهوة وحدها تنمو جيداً. للعثور على الشاي الذي تبحث عنه، يجدر بك الذهاب أبعد من ذلك.

- أين يكون ذلك بالتحديد؟

- في شمال الهند. هناك بدؤوا بزراعة أنواع ذات جودة عالية من الشاي الأسود.

- نعم، أعلم هذا ولكن الأنواع الأخرى هي التي تهمني.

- عن أية أنواع أنت تتحدث؟

- عن الشاي الأخضر والأزرق. وكذلك عن الأندر بينها: ذلك

الذي يسمّى الشاي الأبيض.

قطب تايلور جبينه.

- في هذه الحال، لا أرى سوى الصين. على ما يبدو، يوجد هناك

أراض زراعية في غاية الخصوبة. سفينة "أمفيتريت" تعاود الرحيل إلى

شنغهاي. ليس أمامك سوى متابعة الرحلة.

شكر شارل ستوو تايلور الذي، عن غير قصد، طمأنه في

مقصده: الصين. بعد أن حمل بضاعته على ظهر سفينة عائدة إلى

لندن، انتظر ثلاثة أسابيع إضافية رحيل الأمفيتريت. استغل هذه

الإقامة الجبرية كي يمتن العلاقات التجارية لعائلة ستوو مع شركة

بلاد الهند ولزيارة الجزيرة.

كان ذلك ما بين شهري نيسان وأيلول، والرياح الموسمية تغدق
وابلاً من الأمطار الجارفة تستقبلها الأرض كمن سماوي. في كل بستان
زاره، كانت الأوراق مغضنة ولا ينبعث منها أي عطر خاص.
أمضى خمسة عشر- يوماً أيضاً يجول في الجزيرة، ثم عاد إلى
كولومبو.

في هذه المرحلة من رحلته، كان قد لاقى الاتزان اللائق بكل
سيد حام بالمغامرة والثروة. إذ كان لشارل ستوو موهبة السفر
النادرة، دون أن يثير المنفى في نفسه الاضطراب الشديد الغموض
الذي يشل النفوس ويضيق عليها بذلك الشعور الدائم الطويل
الذي يدعى الحنين.

مع ذلك، لئن كان يأنس التواجد في كل مكان، غير أنه لم يكن
يشعر بأنه في وطنه ولا في أي مكان. ولم يكن ذلك إلا ليدفعه
للاستمرار دائماً وأبداً بمتابعة رحلته نحو المستحيل.

بعد أن غادر جزيرة سيلان، حط رحاله في سنغافورة وسافر من هناك إلى هونغ كونغ. ثم سلك الطريق الساحلي على مهل باتجاه شنغهاي، ووصل أخيراً إلى مقصده.

إذا كان يستحيل على أي غريب اختراق الإمبراطورية السماوية، مع ذلك، كان بإمكانه المتاجرة مع خمسة مرافق كبيرة وشراء كمية غير محددة من البضائع المحلية وإرسالها إلى الهند في سبيل بيعها للإنكليز بسعر من ذهب.

لدى وصوله إلى شنغهاي، دُهب شارل ستوو من غابة الصواري التي كانت تغطي ميناءها ومن تعداد الكائنات البشرية الهائجة في المرفأ.

نزل من سفينته واستقر في الحال في الحي الإنكليزي للمدينة،
المكان الوحيد المسموح له. بالقرب من الميناء وضواحيه، صادف عدداً
من الصينيين. كان البعض يجري والبعض الآخر يتضرع إلى السماء.
بدأت المدينة واقعة تحت تأثير جنون مسعور، ولاح له أن النظرات
التي ترمقه مرتابة.

داخل القنصلية البريطانية التي ذهب إليها لتسوية أوراق
إقامته بحسب الأنظمة، سأل عن سبب هذا الهرج والمرج. أجابه
أحد الموظفين:

- قامت السلطات الصينية بتفتيش سفن إنكليزية وفرنسية،
وتم إحراق حمولتها. يتحدثون عن حرب وشيكة.

- وأنا الراغب بالسفر إلى داخل البلاد!

رمقه الموظف بنظرة استغراب.

- سيكون ذلك انتحاراً.

تأكد من واقع الاضطرابات بعد فترة وجيزة عندما صادف في

طريقه أناساً صينيين كانوا يفرون من شنغهاي. كانوا ينكفئون إلى

داخل البلاد حاملين معهم نعوش أمواتهم.

في أول يوم، لم يفلح شارل ستوو بشراء حمولة من الشاي الأخضر الذي كان يبدو من نوعية فريدة. في اليوم التالي، طاف في حي المدينة المسموح للغرباء. عثر في قبطانية الميناء على موظف منهمك يسجل في دفتر الحسابات ورود بضائع آتية من شمال البلاد. دنا منه وسأله:

- هل أستطيع أن أشتري الشاي منك؟

نظر إليه الموظف بهيئة مرتابة.

- هل أنت إنكليزي؟

- نعم. من لندن.

- وهل أنت منتسب إلى لجنة الشاي؟

- لا، لماذا؟ هل يجدر بي الانتساب إليها كي أستطيع التفاوض معك؟
- لنقل بأن ذلك يسهل بعض الأمور.
- قل لي أين تقع هذه اللجنة الشهيرة. سوف أتسجل بها وأعود لأشتري الشاي منك.
- بدا الرجل مهتماً بفضول.
- ماذا يلزمك؟
- شاي أسود وأخضر بكميات وفيرة.
- بإمكانني أن أجد لك ذلك.
- وشيئاً من الشاي الأبيض أيضاً.
- عبس وجه الرجل الصيني في الحال.
- اعلم، سيدي العزيز، أن الشاي الأبيض لا يباع. سواء كنت عضواً في اللجنة أو لم تكن.

- هل أنت واثق من ذلك؟

- تمام الثقة.

- فإذاً، لمن هو مخصص، هذا الشاي الأبيض؟

- إنه مخصص للإمبراطور.

- قيل لي إنه بالإمكان العثور عليه هنا.

- لقد أسيئ إعلامك.

- مع ذلك، أرغب بالتزود منه بأي ثمن كان.

- مستحيل.

أخرج شارل الملحاح من محفظته بضعة أوراق مالية ووضعها

على الطاولة أمام الموظف. رفع الرجل الصيني بصره ونظر إلى محدثه

بهيئة مستاءة. كانت شفتاه الزرقاوان، لشدة ما زَمَهما، تعبران عن كل

الاحتقار الذي يضمّره لهذا الغريب الذي لا يبدو معيار النزاهة

يقارب عرفه على الإطلاق. بحركة ملؤها الجفاء، أغلق دفتر حساباته
ونفض عن كرسية.

- أعيذ وأكرر لك سيدي. الشاي الأبيض محظور من البيع. أنا
أسف لطردي لكنني كثير الانشغال. الوداع.

ذهب شامخ الرأس باتجاه المستودعات. استعاد شارل ستوو
أوراقه النقدية، ودار على عقبه.

حين أعرب عن رغبته بزيارة المدينة خارج النطاق المسموح به،
مُني بالرفض. أدرك حقيقة وهي: بما أنه أوروبي فكل الأبواب مغلقة
في وجهه. بعد أبحاث حثيثة، عثر على لجنة الشاي وأصبح عضواً فيها
مقابل اشتراك ناله على الفور. طلب عندئذ الذهاب إلى داخل البلاد
في سبيل رحلة دراسية. وقوبل التماسه بالرفض.

- أنت مجنون! لطمه موظف إنكليزي. هل لديك فكرة كم
يمكن أن تكلف اللجنة رحلة كهذه؟

- أنا على استعداد لدفع كل النفقات على حسابي.
- وهل أنت مدرك لخطر رحلة كهذه؟
- أنا مستعد لتحديها.
- حاول فقط أن تغادر هذه المدينة وسوف تقتل. إذا لم يكن لديك تصريح بالمرور، من غير المجدي أن تفكر بمغادرة شنغهاي.
- بالضبط، كيف يمكنني الحصول عليه؟
- أوما الموظف برأسه مثل دمىة متحركة.
- هذا مستحيل حتماً. وحده مديرنا يملك هذا الامتياز. وأشك كثيراً في أن يوافق على منحك إياه. إلى اللقاء سيدي.
- كان الموظف يهَمّ بالمغادرة، عندما أمسك شارل بذراعه وتوسل إليه:
- أرجوك. ساعدني. قل لي فقط أين أستطيع رؤيته. أنا لا أطلب منك شيئاً أكثر.

تنهد الرجل، ثم والأسى يحزّ في قلبه، خربش اسماً وعنواناً فوق

قطعة ورق.

- هيا، اذهب من قبلي. في النهاية، ذلك لا يكلفني شيئاً.

وذلك سيفيد كدرس لك. سوف يعرف المدير كيف يصرفك ويردّك

عن هذا الجنون.

- سوف يساعدني، كن على ثقة.

قبض شارل ستوو على الورقة داخل يده، شكر الموظف وعاد إلى

الحي الإنكليزي مشياً على قدميه.

صادف في طريقه كرسيّاً محمولاً يضم في داخله أحد أعيان الصينيين

الكبار. كان يلبس عباءة حريرية، حليق الرأس، ما عدا جديلة على طراز

شنغهاي. كان يمسك بيده زهرة شاي ذات بياض ناصع.

ابتسم الصيني، أدار زهرة الشاي في يده. ثم ابتعد.

مشى مقتفياً أثرها. اشتم شارل ستوو عطر الزهرة. لم يشم في

حياته رائحة نفاذة وعطرة مثلها.

هكذا التقى شارل ستوو ببيرل، مدير لجنة الشاي والتاجر

البريطاني الوحيد الحائز على امتياز تصريح مرور صادر عن السلطات

الصينية. إيرلندي مقيم في الصين منذ ثلاثين عاماً. كان الرجل يمتلك

تجارة مزدهرة، وعيناً زجاجية وقدراً طيباً من حسّ الفكاهة، وميلاً

لشرب الويسكي.

- كيف عثرت على عنواني؟

- ببساطة شديدة. بالذهاب إلى لجنة الشاي والسؤال عن أكثر

الأعضاء نفوذاً.

- بالتأكيد، لا يتكوني بسلام! كل هذا، لأن لا أحد لديه الشجاعة

على الترشح يوم الانتخابات. ما عداي! يا لها من مهزلة!

- مع ذلك، هذا ما أتاح لك الحصول على تصريح مرور، أليس

كذلك؟

- كلام تافه! حصلت عليه بفضل علاقاتي وصدقاتي القديمة مع

الصينيين. ومن دون شك، من أجل هذا، أكرهني رجال اللجنة هؤلاء

على ذلك. بوجودي، يعلمون أن الصين تبقى أرضاً مفتوحة.

- شيء مهم. مهم فعلاً، سيد ستوو.

قطب الإيرلندي حاجبيه فجأة.

- أرى أنك فضولي جداً، أيها الشاب.

- هذا أقل ما يمكن. هل تعلم أنك تتمتع بمنزلة شبه إلهية؟

أنت الممثل الوحيد لعرقنا القادر على التنقل في هذه البلاد الشاسعة.

هذه الخاصية خليقة بإمبراطور.

- أتهازي بي؟

- إطلاقاً.

- لندخل في صلب الموضوع. ماذا تريد مني؟

بعد عدة كؤوس واستعادة ذكريات القارة العجوز، بدأ الرجلان

برفع الكلفة وراحا يتحدثان بالأعمال.

- كم صندوقاً من الشاي الأخضر والأسود تستطيع أن تبيعني؟

سأل شارل ستوو.

- قدر ما تشاء.

- أقصد أجود أنواع الشاي. ذلك الناتج عن أول قطاف شهر آذار.

قطب الإيرلندي جبينه.

- لسوء الحظ، لم يعد لدي صندوق واحد. النخب الأول نفذ

منذ وقت طويل. بقي لدي من الثالث أو من الرابع. ولا أستطيع أن

أقدم لك تخفيضاً بالسعر. كل زبائني على حد السواء.

- أنا موافق على هذه الشروط. شرط أن تدلني كيف بالإمكان

التزود بالشاي الأبيض.

- أنت تمزح؟

- لا، لا أظن.

- تجارة الشاي الأبيض ممنوعة في هذه البلاد.

- أعرف. سبق وقيل لي ذلك.

- ألا يخيفك هذا؟

- لا، أجاب ستوو بعزم.

أدار بيرل نظره لوهلة، اجتمع كأس الويسكي وقال ماداً يده:

- سوف أحاول أن أجد لك من هذا الشاي، لكنك لن تعرف

شيئاً عن مصدره.

- لماذا؟

- الأمر في غاية الخطورة. لا أستطيع أن قوله لك.

- سأعرف كيف أبقى صامتاً.

غمغم بيرل لكنه لم يستسلم.

- لا فائدة من الإلحاح، السر- يبقى سرّاً. ويفضّل أحياناً أن

يُعرف أقل ما يمكن.

انتهى المطاف بشارل إلى الاستسلام.

- موافق، لنعد من حيث بدأنا. حسناً، متى يمكنك تسليمي الشاي؟

- خلال أسبوع. غير أنني أفضل إعلامك الآن أنه مع إشاعات

الحرب هذه، إجراءات التفتيش على النهر مشدّدة. سيكون من

العسير المرور عبر خيوط الشبكة.

كان شارل ستوو قد أصغى إلى بيرل باهتمام وأدرك أنه من غير

مساعدته، لن يتمكن من التنقل داخل البلاد. عبس ممتعضاً وأعرب

للإيرلندي عن غايته:

- أودّ بشدّة جلب الشاي الأبيض واستكشاف أسرار صناعته.

دمدم بيرل:

- دعك من هؤلاء الصينيين الملعين، وحرّي بك شراء ما أقترحه

عليك دون طرح الأسئلة. من سيتوصل إلى اختراق أرضهم وسرقة

أسرارهم لم يولد بعد.

أنهى شارل ستوو كأسه على مهل. ومن باب التحدي، لم يصدّق

كلمة واحدة مما قاله لتوّه. كان ينتظر ساعته.

كان بيرل قد بدأ مهنته في شنغهاي بتجارة التوابل.

في ذلك العصر، كان الهولنديون يملكون احتكار تجارة التوابل

القادمة من آسيا. في أحد الأيام، كان ثمة شخص اسمه فان بيترسن،

ثارت ثائرته من رؤية شخص إيرلندي يزيحه ليحتل مكانه فوق أرضه.

دخل إلى دكان بيرل، غرس سكيناً في طاولة مكتبه وقال له:

- هل تعرف تاجراً واحداً للتوابل ليس هولندياً؟

- نعم، أنا.

عقد فان حاجبيه.

- عقدنا اتفاقاً. أنتم تحتكرون تجارة الحرير وصبغ اللك

ومنتجات الصين الأخرى. لكن هولندا تحتكر تجارة التوابل.

- هذا ما سوف نراه!

- سبق ورأيناه، قاطعه الهولندي قبل أن يستعيد سكينه

ويرحل.

اشتبكا بمبارزة، فقد خلالها بيرل إحدى عينيه والهولندي حياته.

في الشهر التالي، كان على بيرل، رغم ذلك، أن يسلم بالأمر: ما من تاجر

صيني يوافق أن يزوده بالتوابل الجيدة. توجه مجروحاً نحو القنصلية

البريطانية كي يشتكي.

- وُعدت بالثروة لدى مجيئي إلى هنا. والآن أنا مفلس بسبب

هؤلاء الهولنديين الملعين.

قال له القنصل وهو يشرب مشروباً غريباً:

- ماذا تريد، تفرض سياسة الإمبراطورية احترام احتكار التجارة

لكل واحد!

- ربما. لكن مقتضيات السياسة تحرمني من موارد رئيسية.

- على رسلك، سيد بيرل. سنتوصل في النهاية إلى حل. ولكن
أليس هناك شيء آخر غير التوابل. في هذه البلاد تجد من كل شيء.
خذ هذا مثلاً.

قَدَم القنصل له فنجاناً شربه الإيرلندي بجرعات صغيرة. بالرغم
من أنه حلو المذاق بالنسبة إلى رجل معتاد على اجتراع الويسكي.

- آه، هذا هو الشاي إذأ!

نظر إليه القنصل بفضول.

- هل تقصد بأنك لم تتذوقه من قبل؟

- يا إلهي، لا، ولا حتى في لندن!

- لا يُشرب في لندن فقط، إنما في العالم كله. ينتج هنا، وتحديداً

في الصين. لذيذ، أليس كذلك؟

قَطَب بيرل وجهه وهو ينهي فنجانه.

- لابس. لكنه لا يضاهاى شراب الشعير الصافى.

- إذا بقيت فى الصين، عليك أن تعتاد عليه. هنا، لا يشربون إلا

هذا، باستثناء كحول الرز. وفى إنكلترا، بإمكانى أن أقسم لك أن الشاى

يلقى رواجاً شديداً ويستهلك منه أكثر من الويسكى.

أثناء قوله هذا تقصد أن يتباطأ فى كلامه. التمعت نظرة بىرل

فجأة.

- ربما أعطيتنى لتوك فكرة.

بعد مرور شهر، كان بىرل يشتري ويبيع الشاى. وبعد ثلاثين عاماً،

أصبح أهم تاجر فى شنغهاى.

خلال تلك السنوات، كانت تعبر مستودعاته آلاف الأطنان من

هذه السلعة الثمينة، غير أن بىرل لم يشرب منها فنجاناً واحداً.

لم يكن شارل ستوو حديث العهد بما يخص استهلاك الشاي، لكن ذلك الذي أذاقه بيرل إياه في نهار ذلك الصيف أعجبه لنوعيته الاستثنائية.

كان الرجلان جالسين على شرفة بيت الإيرلندي المطل على البحر.

- لم أذوق في حياتي شراباً بهذا المذاق الطيب. هل هذا هو الشاي الأبيض الذي طلبته منك؟ سأل شارل.

- لا، متأسف، الشاي الأبيض نادر الوجود. هذا الشاي من صنفى الشخصي. خلطة من الشاي الأخضر لا يوجد إلا في وادٍ وحيد.

- أين هذا الوادي؟

- لا أستطيع أن أقول لك. هذا المكان سرّ يعادل الذهب.

ويجدر أن يبقى في حوزتي. إنه مصدر قوتي في هذه التجارة.

لم يصف الإيرلندي المزيد.

- سأشتري منك من هذا الصنف عشرة صناديق، بالسعر الذي

تحدده.

- موافق. غداً في الصباح، أسلمها لك على ظهر السفينة، مع ما

طلبتَه من قبل.

- سوف تبحر الأمفيتريت من جديد بعد يومين. ويجدر بي

العودة إلى لندن. لا أعرف إذا كنت سأعود.

- سافراً ميموناً.

شرب شارل ستوو ما تبقى في قعر فنجانَه ببطء. أما بيرل فكان

يرتشف شراب الشعير الصافي بصمت.

أدار الإنكليزي رأسه ناحية الأفق. عبرت أمام ناظره

سفينة مضاءة ما لبثت أن توارت بسرعة في اليم، كما تغرق

الشمس في البحر.

بعد يومين، غادرت سفينة أمفيتريت مرفأ شنغهاي باتجاه لندن.

كانت تضم حمولة كبيرة من الشاي والتوابل، ولكن ينقص عن متنها

مسافر.

في المساء عينه، حضر شارل ستوو عند الإيرلندي.

- أم ترحل؟ سأل الإيرلندي.

- لا.

- ووالدك الذي ينتظرك هناك؟

- لا ينتظرنى أنا بالذات. يريد بضاعته وسينالها.

أمسك بيرل الشاب من ساعده.

- لماذا؟ لماذا تفعل ذلك؟

تدشّق شارل ستوو بعمق قبل أن يجيب:

- سوف تفهم بأنني أتيت إلى الصين وفكرة محددة تدور في

رأسي.

لم يستطع بيرل منع نفسه من الضحك:

- نعم، العثور على مزارع الشاي السرية، وسرقة أسرار الصناعة

من الصينيين... هل تمزح؟ أمل ذلك.

- إطلاقاً.

أصاب الجمود وجه الإيرلندي.

- أنا لا أفهمك يا شارل ستوو!

كان الحزم جلياً في عيني الإنكليزي حين خاطبه بفضافة:

- الآن، يجب أن تقول لي ماذا تعرف.

نظر إليه بيرل بذهول.

- ماذا أعرف؟ بخصوص ماذا؟
- بخصوص هذا الشاي. لا بد من وجود سبب كي يجعل من الشاي الصيني أفضل بكثير من بقية الأنواع الأخرى.
- ربما ببساطة، هي مسألة مهارة...
- المهارة سرّ.
- أنت على حق. هي ثمرة خبرة آلاف السنين.
- سوف أدفع ثمناً باهظاً لمعرفته.
- شرب بيرل جرعة ويسكي وقال جازماً:
- لو كان الأمر متعلقاً بالمال لحلت القضية منذ عهد طويل.
- ولكن سرّاً كهذا لا يُشترى بالمال، يدفع في سبيله حياة.
- حياتي لا قيمة لها دون هذا السرّ.
- بعد أن تمالك بيرل نفسه، أصبح غامضاً.
- لو سلمتك هذا السرّ، سيكون أحدنا مرتبط بالآخر لبقية حياتنا.

- ذلك لا يخيفني. لا بل بوسعي توقيع اتفاق معك.

ابتسم الإيرلندي وهو يرتب على كتف صديقه.

- أنت لا تفهم. لا يتعلق الأمر هنا بقصاصة ورق تافهة.

بالنسبة إلي وإلى كل أهل هذه البلاد. ذلك لا يعني شيئاً.

- من دون اتفاق؟ ماذا تريد إذاً؟

- ميثاق ممتزج فيه دمنا. موقع برأس مدية.

أخرج نصلاً من غمد كان يلبسه فوق زناره، حَزَّ معصمه وشاهد

قطرة دماء تلتمع ببطء.

- بالإمكان تزييف قطعة ورق ولكن عهداً بالدم، لا. هل أنت

مستعد للتوقيع؟

- أنا مستعد.

مدَّ قبضته التي شطبها بيرل. بعد ذلك امتزج دمهما، أدرك

الرجلان للتوّ بأنهما تجاوزا عتبة مسلك لا يمكن العودة منه.

- حسنٌ جداً. قال بيرل. لم يعد بإمكانك معاودة الرحيل إلى

لندن بعد الآن، وسوف تعمل لصالحني.

- أنا موافق. ما هو السرّ إذأ؟

نفث الإيرلندي دخان سيجاره نحو النجوم، التفت ناحية الإنكليزي

وقال له:

- السرّ يدعى لو شين.

- من يكون لو شين؟

- ستعرف ذلك عما قريب.

ثم ختم قائلاً وهو يسحب من دخان سيجاره:

- غداً، سوف نذهب إلى هناك كي ترى وانغ، الرجل الذي يعمل

لديه ويسلمني.

- أين يكون هذا الهناك؟

- في بلاد الشاي.

في صباح اليوم التالي، عند الفجر، غادرا شنغهاي قاصدين
منطقة هوي-شو، الواقعة على بعد أكثر من ألف ميل داخل البلاد.
سافرا على متن مركب شراعي يدعى الخيزرانية، يذهب صعوداً ببطء
في مجرى النهر الأخضر- مرآ مَـدن عديدة وعبرا شباك كل نقاط
التفتيش العسكرية في الإمبراطورية. كان جلياً أن بيرل مزود بتصريح
مرور يفتح له كل أبواب الصين.

كان للمدن أسماء غريبة، وأجملها هانغ-تشو وين-شو. لكن
زيارتهما كانت محرمة عليهما.
أخيراً، وبعد عشرين يوماً من السفر، وصلا إلى أطراف هوي-شو.
توقفا هناك في نزل واستراحا ليلة واحدة. في الصباح، عاودا الرحيل.
قادهما كرسي بحمالين عبر المدينة ووصلا أمام دكان أحد التجار.

- ها قد وصلنا، قال بيرل.

صرفا الحمالين وانقضت عليهما في الحال زمرة أولاد. خرج رجل

من الدكان لطردهم، انحنى أمامهما وقال:

- اتبعاني، وانغ بانتظاركما في داره.

تبعاه داخل الأزقة إلى أن وصلا إلى مخرج المدينة عند سفوح

الجبال، ووجدا مسكناً في غاية الجمال، كان يشبه المعبد. تواری

الخادم ودخل الرجلان داخل حديقة فيها بركة من حجر الجاد، تصدر

عنها موسيقاً خفية وإلهية. كان وانغ جالساً تحت شجرة شاي. ابتسم

واستقبلهما بهذه الكلمات المكرسة:

- أنتما هنا، أخيراً. لم أعد أنتظركما.

كان وانغ سيداً. رأسه حليقة ، يلبس عباءة خضراء مزركشة بخيوط ذهبي، وعلى حزامه خنجر. بدا المسافرين، بملابسهما المعفرة بالغبار، نجمين مذنبين غمرهما سناء نجم.

كان معتاداً على التعامل مع الإيرلندي، غير أنها كانت المرة الأولى التي يراه فيها برفقة أحد. احترز من هذا الوافد الجديد.

- هل أتيتما لشراء الشاي؟ بدا مرتباً.

- نعم، أجب بيرل. لا تخش شيئاً، سيد وانغ، هذا الرجل يعمل

لصالحني.

لما لم يقل الصيني شيئاً، أراه الندبة على معصمه:

- عقدنا عهداً بالدم. بوسعك أن تثق به كلياً.

استرخى وجه وانغ.

- في هذه الحال، أهلاً بك سيد...

- ستوو، شارل ستوو.

نظر وانغ إلى الإنكليزي من رأسه إلى قدميه، بما أن ذلك الأخير لم

يرف له جفن ولم يبدُ مرتبكاً من كل هذا الرخاء والأبهة، اتخذه للحال

صديقاً له.

- أهذه هي المرة الأولى التي تأتي فيها إلى بلاد الشاي، سيد ستوو؟

- لا بل هذه هي المرة الأولى التي آتي بها إلى الصين.

- من الضروري إذأ أن أسلمك أول أسرار الشاي الثلاثة، قال وانغ.

صفق بيديه، وللحال سارع أحد الخدم، يحمل صينية فضية عليها

ثلاث قصعات من الشاي الباخر. أخذ ستوو واحدة في يده، حملها إلى

شفتيه، وكان المشروب لذيذ المذاق.

- هل هذا هو الشاي الذي تنتجونه؟ سأل.

ندّ عن صوت وانغ التبجيل وشيئاً من الرهبة ربما:

- لست أنا، لو تشين. أنا أكتفي ببساطة بمعالجة الشاي الذي

يجلب لي من هذه الجبال في معاملي الصغيرة.

قام الصيني بحركة تشمل كل الأفق حوله. ثم أردف بابتسامة

كأنه يقول بها:

- أضف إلى ذلك، فيها أفضل أنواع الشاي. لكن الماء الذي

استخدم لصنع هذا الشاي هو الأنقى في كل الإمبراطورية.

نهض واتجه صوب بركة الجاد. غرف منها طاس ماء ومدّها

نحو شارل ستوو الذي شرب منها جرعة فوجدها سلسبيلاً. نظر

إلى البركة وسأل:

- من أين تأتي هذه المياه؟

- من أحد ينابيع هذه الجبال. هناك حيث يعيش لو تشين.

وقال وانغ حينئذ:

- هذا هو أول الأسرار. من دون مياه عذبة، لا يكون الشاي

جيداً.

في اليوم التالي، عند الفجر، غادرا بيت وانغ ليتوغلا في الجبال.
سارا لوقت طويل فوق دروب غير مطروقة بسبب فيضان الأمطار.
عبرا نهرين. كان وانغ يقودهما دون أي تردد وعلى حزامه خنجر
يطرق جنبه عند كل خطوة.

أخيراً وصلا إلى وادٍ عميق، حيث كانت الجبال كلها من حوله
مغطاة بمزارع الشاي.

- الوادي المقدس، قال وانغ. وادي الشاي المقدس.
- لماذا هنا بالتحديد؟ سأل الإنكليزي.
- لأنه أكثر الوديان وقاية ورطوبة. محمي من الرياح
والعواصف، يهطل المطر فيه باستمرار، وحين ينقطع المطر، يحلّ محله
الضباب والرطوبة الكثيفة.

- المياه.

- نعم. المياه. أول أسرار الشاي.

كان شارل ستوو مبتهجاً. إنه في مملكة الشاي. في هذه الجبال،
أروع مزارع العام، وأندرها دون شك. كانت أوراق الكاميليا تغطي
الأرض في كل مكان. محيط شاسع أمواجه حريرية بديعة. بحر بلون
أخضر صارخ لا يُجتنى منه سوى الزبد. راح يسبح في هذا السيل
بغبطة، منتشياً بالسرور.

مشى داخل هذا الفردوس لوقت طويل، وأدرك أنه لم يرَ في
حياته شيئاً أجمل من هذا.
كانت قاطفات الشاي الوفيات للأسطورة التي رواها له والده،
يجنين البراعم الفتية بخفة يد مدهشة. لكن لم يكن هناك مقصات
ذهبية. لم يكن هناك إمبراطور. لم يكن هناك سواه، شارل ستوو وليوم
واحد فقط، أضحي ملك الشاي.

مشى الرجال الثلاثة حتى عمق الوادي بنوع من الصمت الديني.

كان هناك مشغل صغير يعمل فيه العديد من النسوة.

ثمة حارس مسلح رآهم يدنون فانحنى أمامهم. حيّاه وانغ

والتفت ناحية الغريبين.

- ها قد وصلنا. هنا ينتج أفضل شاي في العالم. إلى هذا المكان

يصل ثم يعالج بحسب طقوس الأسلاف كل الشاي الذي يجنيه عمال

لو تشين. ليس عليكما الآن سوى أن تفتحا أعينكما وتتأملوا.

اكتشف شارل ستوو بساطاً من الأوراق تتجفف تحت

الشمس. مئات من النسوة الراكعات كن يفرزن دون كلل الأوراق

التي ستغدو شايًا. تابع هذا المشهد السحري إنما الواقعي وهو

تحت تأثير الفعّال عنيف. بحر من العقيق، فيه أسماك ذهبية
وفضية تطوف بسكون.

أنواع الشاي هذه، كان لها أسماء محيرة وشاعرية في الوقت ذاته.

- بي لو شون، لونغ شينغ، قال وانغ.

- دوامة حجر الجاد الربيعي وبثر التنين، ترجم بيرل.

أثناء تنزهه في مصنع وانغ، اكتشف شارل ستوو مكاناً فريداً،

تعالج فيه أوراق شاي من نوعية استثنائية. أخذ بيده بضعة أوراق،

سحقها واشتمّ عطرها. كان شذاها مدوّخاً وساحراً.

حذا وانغ حدوه. ثم التفت ناحيته وقال:

- السر الثاني هنا: إن لم تعالج الأوراق على نحو جيد، لن يكون

هناك شاي جيد.

بعد قليل، قال لهما وانغ:

- يجدر بي ترككما. إنه نداء الأعمال. سأوافيكما هذا المساء على العشاء.

ثم تواری، تاركاً أحد رجاله تحت تصرفهما. نظر إليه البريطانيان بصمت وهو يبتعد. حين اختفى عن حقل نظرهما، التفت شارل ستوو ناحية بيرل وسأله:

- هل هذا هو ما أردتني أن أشاطرك إياه؟

نظر إليه بيرل وهمتم كمن يقول اعترافاً:

- نعم، لكنك اكتشفت فقط الجزء الطافي على السطح. هنا

يعالج وانغ الشاي، لكنه لا يزرعه. وماعدا هذه المنشأة، هو لا يملك شيئاً.

- مع ذلك، هذا الوادي...

- هذا الوادي لا شيء. لا يعدو هذا سوى مدخلٍ إلى مملكة لو

تشين. ما وراء هذه الجبال، هناك ما يروي العالم برمته.

قام بحركة ناحية الأفق.

- هناك يقيم لو تشين، سيد الشاي الفعلي. ولكن يستحيل

لقاؤه نهائياً.

- لماذا؟

- مثل كل المتنفذين، هو بحاجة إلى أن يصنع لنفسه درعاً كي

يحتمي من المخاطر التي تهدده. أوليس الاختفاء أفضل الدروع

حماية؟

- على هذا، أنت لم تره قط؟

- لا. يروى أنه مكتنف بالأسرار كثيراً لدرجة لم ير أحد وجهه قط.

أمعن شارل ستوو، المشوَّش مما قاله بيرل للتو، في التفكير مطولاً.

- ولا حتى وانغ؟

أجاب الإيرلندي بالنفي بحركة من رأسه.

- ولكن لماذا؟

- أولئك الذين نالوا هذه الحظوة، قطعت رؤوسهم جميعاً.

أصابت شارل ستوو رعشة.

في المساء، بدأ المطر ينهمر. عادت النسوة إلى هويّ - شو،

الواحدة تلو الأخرى، مثل أفعى طويلة ملونة تنسل داخل الأوراق

اللامعة.

مكث الرجلان لوقت طويل داخل المصنع، يختاران أفضل

الأوراق. فيما بعد، ودون أية كلمة، تأملا نار الشاي الخضراء تخبو

عند الغسق، ساكنين.

على العشاء، لدى وانغ، كان هناك وليمة كبرى على شرف
الغريبين. قُدّم خمسون نوعاً من الأطباق المختلفة، فوق صوانٍ فضية،
وكميات من الشاي تكفي لإشباع كل أنهار الصين.

كان وانغ رجلاً ثرياً ومنتفذاً. ولا أحد من حوله يبدو جاهلاً لذلك.
بعد الطعام، صُفّق بيديه، وللحال ظهرت عشرون امرأة يحملن
لكل واحد من الضيوف منشفة ساخنة ومعطرة. تبع ذلك عزف فرقة،
وشربوا مشروباً أبيض حاراً يترك في الحلقوم طعماً مثل النار.

لم يعد شارل ستوو منشغلاً لا بوانغ ولا ببيرل. كان يجلس متربّعاً،
وثمة امرأة غريبة لاحت كالطيف، لم يعد يرى سواها. امرأة صينية،
شعرها طويل أسود، عيناها لوزيتان بلون أخضر قائم. كانت ترقص.

بقي الإنكليزي ينظر إليها ملياً لوقت طويل، بصمت، مفصلاً كل

واحدة من حركاتها. كأنه يشهد عرضاً يراه للمرة الأولى والأخيرة في

حياته.

في نهاية الرقصة، دنا شارل ستوو من الراقصة ومدّ لها كأس شراب. ابتسمت وقبلت. امرأة، كانت لبهاء جمالها ونضارتها إشراقاً كأنها تحتفظ فوق بشرتها بأثر ذهبي ونور طفولي.

- من هذه المرأة؟ سأل ستوو بيرل.

نظر الإيرلندي إلى رفيقه في عينيه مباشرة، وقال له:

- اسأل وانغ.

في هذه اللحظة بالذات، دنا منهما وانغ وأسرّ لهما:

- أقدم لكما تلك التي تكون زوجة لو تشين.

بعد رحيل الراقصات، عاد الأصدقاء إلى وليمتهم وأكملوا إلى وقت متأخر من الليل. غير أن الإنكليزي استخف بالاحتفال المقام على شرفه. بعد تقديم الحلوى التي كانت عبارة عن مرطبات، عشر سلال من الفاكهة، لم يمسه قط، استأذن بالانسحاب.

- كان استقبالاً رائعاً. سوف أذكره ما حييت، قال لوانغ وهو يسلم عليه.

شكره الصيني وتمنى له ليلة مزينة بالأحلام ومعطرة بالياسمين. لم يلحق بيرل برفيقه.

- أنت تفهم. سوف يقدمون الكحول بعد قليل. طابت ليلتك، شارل.

- طابت ليلتك، أنت أيضاً بيرل.

في تلك الليلة لم يتمكن شارل ستوو من أن يغمض له جفن.
كانت أمام عينيه صورة تلك المرأة، تقوم برقصة، حركاتها بطيئة
ومحسوبة. كأنه كان يشاهد على واجهة دكان أثريات دمية آلية تدور
دون توقف على النغمة ذاتها. ويقول لنفسه إن هذا الشيء القديم ذا
السحر الأخاذ، هو ما رغب به طويلاً لكنه لم يبحث عنه فعلياً قط.

في غداة اليوم التالي، غادر الرجلان منزل وانغ وعادا إلى ضفاف

النهر الأخضر، حيث سيصعد بيرل إلى المركب المتجه إلى شنغهاي.

كان وانغ يشقّ الطريق يتبعه عشرة حمّالين يحملون على

أكتافهم صناديق شاي تعادل أوزانهم. بيرل وستوو، وعلى الرغم من

تَمَرّسهما على الشدّة، كان يشقّ عليهما اللحاق بهؤلاء الرجال، فوق

دروب موحلة ومُزَلّقة.

في إحدى اللحظات، التفت الإيرلندي نحو رفيقه وأقرّ له:

- أتري؟ أهم شيء هو مراقبة العمال للتأكد من أنهم لن يضعوا

الصناديق على الأرض أبداً. عند ضفة النهر الأرض مبللة جداً بحيث

تتعرض فيها للتلف. بلمح البصر.

- ماذا يفعلون كي يرتاحوا؟
- يستندون إلى شجرة.
- وفي غياب الشجرة؟
- يتمددون على الأرض وصندوق الشاي فوق صدورهم.

أمعن شارل ستوو التفكير لحظة وسأل بيرل:

- هل هذا هو ثالث أسرار الشاي؟

- لا. السرّ الثالث بعيد المنال.

في الواقع، كان شارل ستوو يظن أنه عثر على السرّ الثالث، غير

أن بيرل، وقبل أن يتمكن شارل من فتح فمه، علق على السؤال الذي

كان سيطره عليه:

- بالنسبة إلى الذهاب لرؤية لو تشين، من غير المجدي أن

تطلب من وانغ، لن يأخذك إليه.

سارا على هذه الحال حتى بلوغ النهر. قبل أن يصعد على متن

مركب الخيزران الذي كان ينتظره، وضع بيرل يده فوق كتف

الإنكليزي وهمس له:

- هل ما زلت مصمماً على البقاء؟

- نعم.

- حسناً. أتمنى لك إقامة طيبة في هوي- شو. سوف يساعدك

وانغ باختيار أفضل الشاي من المصنع. بعد ذلك، حين تصبح البضاعة

جاهزة. سوف تحضرها لي في شنغهاي. إليك، هذا تصريح المرور الذي

سيفتح لك كل أبواب الصين.

مدّ له مستنداً مغطى بالأحرف الغريبة.

صعد بيرل على متن المركب الذي غادر في الحال الشاطئ. صاح

وانغ من بين يديه اللتين شكلهما على شكل بوق:

- لا تخش شيئاً. صديقك بأمان هنا.

قام بيرل بحركة برأسه ليؤكد ذلك، رفع يده محيياً ثم اختفى،

ابتلعته مياه النهر.

وجد شارل ستوو نفسه وحيداً، على ضفاف بلاد لا يعرفها، وشعر

بالضياع قليلاً. التفت ورأى وانغ الذي كان ينظر إليه.

- الآن، أنت ضيفي، سيد ستوو. وكل ما سأريك إياه، لن

تستطيع أن تنساه لاحقاً.

بقي شارل ستوو يعمل لدى وانغ. كانت إقامته هادئة.

في الصباح، كان يستيقظ مع الشمس، ويقتات من فاكهة غريبة، على شرفة مظلة ينبت فيها نباتات تأتي عطورها لتبلبل حواسه. بعد ذلك، كان يذهب إلى المصنع، ويختار بعناية فائقة، أوراق الشاي التي سيرسلها إلى بيرل. في المساء، كان يعود إلى بيت وانغ حيث ينتظره عشاء في قاعة مزينة ببذخ، لدرجة ظن نفسه في المرة الأولى أنه داخل قصر.

وفي نهاية النهار، وقبل أن ينام، كان يكتب في دفتر مذكراته بضعة أسطر ويدون أيضاً المبادئ التي تعلمها من الصيني في النهار ذاته.

كان ستوو يظن أنه لن يرى ثانية بعد الآن تلك المرأة التي قيل

إنها زوجة لو تشين. إلى أن صمّم على التحدث عنها إلى وانغ.

كان ذلك، ذات مساء بعد العشاء. كانت السماء تمطر نجوماً،

وصمت ثقيل قد حلّ على الرجلين.

- أين أستطيع أن ألتقيها؟

نظر وانغ إلى ستوو وكأنه يراه للمرة الأولى.

- تلك الراقصة التي تكون زوجة لو تشين، أين هي؟

- في المدينة، في هوي- شو. لكنك، لا تستطيع بتعقل الذهاب

إلى هناك.

- لماذا؟ أنا لا أعرض نفسي للخطر كما يبدو لي. لا أحد يمكنه

منعي من رؤية هذه المرأة مرة ثانية. ولا حتى من الذهاب لرؤية

لو تشين.

انتفض الصيني. ثم بوجه عابس، أجاب:

- عد إلى رشدك. كل الصين خطرة، حين يكون المرء غريباً.

ثم قال بُعيد لحظات:

- ولكن، أنت حر بفعل ما تراه مناسباً.

.

ذات صباح، وبينما كان شارل ستوو يغرف من بركة الجاد، رأى

وانغ يدنو منه.

- هل ترغب حقاً بمعرفة كل شيء عن الشاي؟

أجاب شارل ستوو بأن هذا أكثر ما يرغب به في العالم.

- يلزمك إذاً أن تعثر على السرّ الثالث.

وبما أن الإنكليزي ظل بارداً كالحجر، سأله وانغ:

- هل أدركت؟

- أظن ذلك.

- أنا مصغ إليك، سيد ستوو.

ران صمت طويل، ثم أعطى الإنكليزي الجواب الذي طال

انتظاره:

- ثالث أسرار الشاي هو لو تشين، أليس كذلك؟
- تهلل وجه الصيني على الفور.
- أرى أنك وجدته.
- لم يكن بالأمر الشاق.
- أنت على صواب. من دون لو تشين، لا يوجد شاي فاخر.
- ماذا تعرف عنه، أنت الذي لم ترَ ولا حتى وجهه؟
- أعرف ما يكفي كي أحترم هذا الرجل وأستمر بالعمل لديه ما تبقى من حياتي.
- إنه يخيفك. يخيفكم جميعاً. لماذا ترتجفون أمامه؟
- انظر إلي، سيد ستوو، أنا لا أرتجف.
- انحنى الإنكليزي. كان لدى وانغ جواب على كل شيء.
- من هو؟ من هو حقيقة؟ هل وجهه جميل لدرجة تجعلك يغمى عليك، أم هو قبيح لدرجة مخيفة؟ ولماذا يختبئ عن عيون الكل؟ لماذا؟

- هل أنت مهتم حقاً بمعرفة السبب؟
- عبر فوق وجه ستوو ظل، بدا وكأنه اتخذ قراره.
- نعم.
- تلك المرأة، امرأة لو تشين، ربما تستطيع مساعدتك. كما أن...
- ثم أعطاه بطاقة زيارة، حُط عليها باللغة الصينية والإنكليزية.
- ...هذه البطاقة، هي من سلمتني إياها. من أجلك.

غادر شارل ستوو منزل وانغ، وصل إلى المدينة وذهب إلى العنوان المكتوب على قصاصة الكرتون. كان العنوان في الشارع الرئيس الأكبر للتجارة وهو الأكثر شعبية في هوي- شو. منزل كبير له شبايك خضراء مغلقة. قرع على باب خشبي ثقيل. جاءت أمامه خادمة تبتسم. دون أية كلمة، أعطاه بطاقة الزيارة فأشرق وجه الخادمة.

- تفضّل! تفضّل! قالت.

كانت تتكلم الإنكليزية بلهجة خفيفة تجعلها فاتنة. تبعها إلى داخل ممر جدرانها مغطاة بالمرايا الصغيرة المستطيلة. في آخره باب من خشب الأكاجو.

- من هنا. تفضّل. هي بانتظارك.

دلف شارل ستوو إلى داخل الغرفة. قاعة مكسوة باللباد تملؤها تحف عديدة ونباتات. لم يكن هناك إضاءة، باستثناء بضعة شعاع من نور متسرب من شبّك خارجي مغلق. كنبتان، منضدة واطئة عليها لوازم الشاي من الفضة المنمّقة. بضعة لوحات فوق الجدران. وفي كل المكان رائحة بخور. تقدّم ببطء وانتظر.

- هل تتمنى رؤيتي؟

التفت إلى الورا وشاهد في الزاوية الأكثر عتمة في الغرفة، امرأة مستلقية فوق ديوان مجلّل بالحرير. لم يسعه رؤية شيء من وجهها ماعدا ثغرها الأحمر مثل فاكهة. حرّكت الشبّك الخارجي فغمر النور الغرفة. اكتشف حينذاك تلك المرأة الفاتنة الجمال والسحر كما في المرة الأولى. كانت تلبس عباءة خضراء حريرية فقط. شعرها أسود فاحم، عيناها خضر اوان واسعتان. وكانت تدخّن الأفيون.

- أعطاني وانغ بطاقة زيارتك، وقال لي إنك ترغبين برؤيتي.

أشارت المرأة بحركة من ذقنها باتجاه الكنبه.

- اجلس من فضلك.

نهضت بخفة عن الديوان، وضعت غليونها في منفضة، وجاءت

تجلس على الكنبه المقابلة له.

- شاي؟

- بكل سرور.

سكبت الماء المغلي في طاس من الفضة صُور عليه طير، وتركت

الشاي ينتقع. ثم مدّته نحوه وهي ترسم ابتسامة.

- أعرف أن اسمك شارل ستوو.

انحنى الإنكليزي.

- هل أستطيع أن أسألك عن اسمك؟

ترددت، ثم انتهت إلى الاعتراف:

- اسمي لوان.

كان شارل ستوو مذهولاً أمام جمال هذه المرأة لا بل أحب

موسيقى اسمها. كل ملمح في وجهها كان يُدنيه بشكل محسوس من

الحب وعذاب الحب.

- هل أنت راقصة؟

شرعت تضحك وهي ترفع بصرها نحو السماء.

- لا، ليحفظني الرب. لا أفعل ذلك كي أكسب عيشي، إنما

ببساطة، للاستمتاع برؤية الرجال يقعون في حبي.

- هذه لعبة تتفوقين بها. جمالك لا مثيل له. وقعت تحت تأثير

سحرك منذ بداية لقائنا. ومنذ ذلك الحين، لم أتوقف عن التفكير بك.

- ذلك لا يدهشني.

استعادت لوان غليونها، سحبت نفس أفيون وأردفت:

- أنا الأجمل لو قلت لك الحقيقة، أو الأقبح لو كذبت عليك.

ظَلَّ شارل ستوو مرتبكاً.

ضحكت، سكبت لنفسها فنجان شاي. وغيرت الحديث.

- كيف حال بيرل؟

لم يفاجئ هذا السؤال شارل ستوو.

- بخير، على ما أظن.

- أنت لا تعرفه منذ زمن طويل، أليس كذلك؟

قالت ذلك بلهجة من لا ينتظر الإجابة. حملت الفنجان إلى

شفتيها وهي تنظر إليه.

- ماذا جئت تفعل هنا، في الصين؟

- جئت حباً بالشاي.

ابتسمت.

- كل الرجال يقولون إنهم جاؤوا إلى هنا من أجل الشاي، ولكن

في الحقيقة، يأتون من أجل الحب والمال.

لم يرد الإنكليزي بشيء.

- أراهن أنك مثل الآخرين. تشتري وتبيع الشاي، لكنك تستهلك

النساء والكحول.

- ذلك يحدث لي. لكنني أحب الشاي حقيقة...وأظن أنني

بدأت أحبك أيضاً.

نظرت إليه برهة، ثم وضعت فنجان الشاي فوق المنضدة

الواطئة، نهضت وودت من شارل ستوو بصمت. جلست على حافة

الكنبة، وعيناها ما تزالان غارقتين في عينيه باستمرار، وضعت يدها

على وجهه ومررت سبابتها من خط حاجبيه إلى مقربي شفتيه. أمالت

عندئذ نحوه رأسها وقبلته.

بهذه الحركة، انزلق ثوبها على طول كتفها كاشفاً مساحة من

ظهرها. شاهد عندئذ زهرة أفيون موشومة، تحملها فوق كتفها.

لم يكن شارل ستوو قد رأى في حياته امرأة موشومة. وجد هذه

الخاصية الغريبة متسمة بالشبقية المثيرة، وحين نزعت شفيتها عن

شفتيه، لم يستطع كبح نفسه من سؤالها:

- ماذا يمثل هذا الوشم؟

- زهرة خشخاش بيضاء.

نظر إليها دون أن ينبس ببنت شفة.

- ألم تتذوق الأفيون قط؟ سألت.

أشار لها: لا.

- الأفيون، شديد الحلاوة ومخيف جداً في الوقت ذاته. مثل

الحب إلى حد ما.

قبّلته المزيد وتابعت:

- ما إن تذوقه مرة واحدة حتى يصعب عليك الإقلاع عنه.

رفعت رأسها.

- هذا الوشم، لم أختره. الأفيون حب لا نختاره.

سأل ستوو:

- من يكون لو تشين؟

نظرت إليه بأسى.

- هل أتيت من أجل هذا؟

- لا. أتيت من أجلك. لكنني أحتاج أن أعرف من هو الرجل

الذي يكون زوجك.

رفعت خصلة من شعرها وراء أذنها وقالت:

- لو تشين هو الرجل الذي أدين له بـ...زهرة الأفيون هذه.

هجرته، هذا صحيح. لكنه يظل زوجي دائماً. ولن يكفّ عن أن يكون.

- لا أفهم.

- في الصين، يمكن للمرأة أن تكون مطلقة. أما الرجل فلا.

هذا هو القانون ولا أحد يستطيع مخالفته. لو تشين سيد. والسيد

لا يُهجر هكذا.

- وانغ سيد أيضاً. يمكنه أخذك تحت سلطته.

نظرت إليه وبدأت تضحك:

- لا، وانغ لا شيء مقارنة بلو تشين. لو تشين سلطة عليا. لا

شيء ولا أحد يقاومه. ينوس باستمرار ما بين الظلمة والنور. ما بين

القبح والجمال.

- كيف عرفته؟

بدت مترددة لبرهة، ثم:

- كنت طفلة، وكان لو تشين ملك الشاي منذ ذلك الحين. كان

والدي يعمل لديه، وعند موته، أخذني تحت حمايته. خلال سنوات

طوال، لم يكن لدي ما أشتكي منه تجاهه. كما كنت نادراً ما أراه. كان ينزل ويصعد النهر الأخضر بلا كلل، مثل ملك يرسم ترابيع مملكته. كان رجلاً ذا جلاله مهيبه وقوة عظيمة لدرجة كان الجميع يرتجفون من ذكر اسمه فقط. كان يعرف كيف يكون كريماً مع رجاله حين يُبدون شجاعة خارقة، أو قاسياً لا يرحم حين يرتكب أحدهم أدنى خطأ. يغمرك تارة بالذهب، وتارة أخرى يقطع رأسك. في الحقيقة،

أظن بأنه كان يريد أن يجعل من نفسه إلهاً.

- كان إلهاً بالنسبة إليك، أليس كذلك؟

- نعم، حتى اليوم الذي أدركت فيه أنه يهينني لأكون زوجته.

وكان يعدّ لزواجنا.

بدأت ترتجف وصمتت فجأة.

- ما الذي حدث في ذلك اليوم؟

- بكيت. لكن لم يكن بيدي حيلة. تمّ العرس. حفل مهيب.
أصبحت زوجة لو تشين. لعام واحد فقط. في اليوم الذي تلا الذكرى
الأولى لزوجنا هربت. تركت الجبال كي ألتجئ هنا، في هوي- شو.

- وماذا كانت ردة فعله؟

- كانت هذه هي المرة الأولى التي يجرؤ فيها أحد على أن
يرفض له شيئاً. جعله ذلك مجنوناً. منذ ذلك الحين وأنا في خطر. أعلم
أنه سيأتي قريباً للبحث عني.

أوشك شارل ستوو أن يفتح فمه عندما منعته:

- بالطبع لو مات، سوف أكون حرة. ولكن، لا أحد يستطيع

قتل لو تشين. لا أحد!

- مع ذلك، هو ليس منيعاً.

- بلى. إنه منيع. لأن لا أحد رآه قط.

- ولكن أنت. يمكنك التعرف إليه و...

خفضت لوان بصرها وقالت بهمس:

- ثب إلى رشدك. لم أرَ وجهه قط!

تلعثم شارل ستوو، غير مصدق:

- هل هذا معقول؟

- هكذا. لا يمثل أمامي إلا ووجهه مغطى بحجاب. في الليل،

كان يوافيني إلى مخدعي في الظلمة، ويرحل قبل الفجر.

- أمر لا يصدق!

وضعت إصبعها على فمه:

- حدّثك عنه الكثير. والآن، أرجوك، ارحل.

كان على طرف لسانه ألف سؤال، غير أنه لم يطرح منها سوى واحد.

- متى سأراك ثانية؟

عاد شارل ستوو عند وانغ. كان الصيني بانتظاره، يجلس متربعاً

فوق حصير.

- هل كشفت لك عن اسمها؟

- قالت لي إن اسمها لوان.

- لها أيضاً اسم آخر.

- ما هو؟

- لا أستطيع أن أقوله لك. إنه اسم لا يُلفظ في الصين. لنقل إن

اسمها لوان. ماذا كنت تريد أن تسألني؟

نسي الإنكليزي هذا السرّ الجديد وقال:

- هذه المرأة، أنت من يحميها من غضب لو تشين، أليس

كذلك؟

هش وانغ ابتسامة.

- لا. لا أستطيع شيئاً حيال غضب رجل كهذا. عندما يعطيني الأمر، سأرسلها له ثانية. لكن أعتقد أنه ينتظر أن تعود برضاها التام. ذلك قد يجنبه فقدان ماء الوجه أمامي. سوف ينتهي بها الأمر إلى الإذعان. أنا متأكد من ذلك.

- وهذا الوشم، زهرة الأفيون تلك، ما الذي تمثله بالضبط؟
لم يجب وانغ فوراً. أخذ أولاً فنجاناً رُسم عليه تنين أخضر، ثم تناول غلاية الماء، سكب ببطء في الطاس شاياً نادراً وفاخراً وهو يصغي إلى موسيقى الماء وقال:

- ذلك يعني أنها مُلك لو تشين. وشم جميل، أليس كذلك. ما رأيك أن تحمل واحداً مشابهاً.

بدأ شارل ستوو يرتعش. ثم استعاد رباطة جأشه، أمسك فنجان الشاي الذي كان يمدّه وانغ نحوه، شرب جرعة وأجاب:

- أتيت حياً بالشاي. وليس لأغدو مُلكاً لأي كائن كان.

ظلاً وانغ هادئ الأعصاب لوهلة طويلة. ثم نهض، استدار، أزلق

عباءته وكشف كتفه الذي رُسم عليه نفس وشم لوان.

- هذا ما كنت أقوله أنا أيضاً، قبل أن أعمل لدى لو تشين.

لم يعاود شارل ستوو التحدّث عن لوان إلى وانغ بعد ذلك، ولا حتى عن الغموض الذي يكتنف هذا الرجل المحير الذي يُدعى لو تشين. بقي الصيني، هو أيضاً، صامتا. كان ذلك بمثابة اتفاق ضمني، سرّ مُشارك، حرق، ما عاد يشعر به، لكن ذكراه بقيت محفورة فوق الجلد.

بيد أنه، ذات مساء، بينما كان الإنكليزي يجلس مفكراً أمام بركة

الجاد، توجه وانغ إليه بهذه الكلمات:

- كفّ عن التفكير بلوان.

رفع ستوو بصره وسأل:

- كيف حضرت أنني أفكر بها بالتحديد؟

ابتسم الصيني.

- وجهك يُقرأ مثل كتاب.

سرت في جسد شارل ستوو رعشة خفية. تماماً مثل حركة أوراق

أشجار الشاي في نسمة الصباح.

- يجب أن ألتقي بلو تشين.

- لماذا؟

- أرغب بالزواج من هذه المرأة.

- ولكن، في سبيل ذلك، عليك أن تصرع عدوك، هل تعلم هذا؟

- نعم.

صمت.

- لا شيء يمنعك. غير أنه، سيتوجب عليك الوصول إليه.

في اليوم التالي، وعند أشعة الشمس الأولى، جاء وانغ يوقظ الإنكليزي.

- استيقظ. حان وقت الرحيل.

لدى ملاقة وانغ على الشرفة، سأله شارل ستوو:

- إلى أين نحن ذاهبان؟

- ولكن، إلى المصنع. لا تنسَ أنك هنا حياً بالشاي.

سلك الرجلان طريق المصنع، عملاً هناك طول النهار. علمه وانغ

كيف يراقب مراحل إيناع الأوراق المختلفة. ستوو كعادته، كان يصغي

بصمت، يسجل ذهنياً ما سيدونه في يومياته لاحقاً.

عندما كان يتوجب حمل البضاعة إلى المدينة، كان رجال وانغ

يحملون صناديق الشاي على أكتافهم. لما كانت الأمطار تنهمر بغزارة

والحمالون الصينيون يتقدمون بخطا متزنة فوق درب موحد،
استغرقت الرحلة زمناً طويلاً، وكان أمام الإنكليزي الوقت الكافي
للتسكع باستمتاع في الطريق. ابتعد عنهم مرّات عديدة، يشدّه
الفضول إلى كل نوع من أنواع الشجيرات التي يصادفها في طريقه.
حين انضمّ إلى المجموعة من جديد، كان وانغ بانتظاره، يقف في وسط
الطريق ونظرته ترمي بشرر:

- أين كنت؟

- هناك.

قام بيده بحركة واسعة ليشير إلى مكان ما ناء وراء ستارة الأشجار.

- لا تبتعد بعد الآن. يمكن أن تُقتل.

عقد شارل ستوو حاجبيه. لم يشعر بأنه في خطر ولا في أية لحظة

من اللحظات.

- لا تنس أنك إنكليزي، وأنت في الصين.

بعد ساعة، وصلوا إلى المدينة فسأل وانغ:

- هل ترغب باستبدال هذا الشاي الأخضر بشاي أزرق؟

نظر إليه ستوو حائراً. لم يكن يرغب بأكثر من ذلك.

- لم لا؟ قالها ببراءة.

- اتبعني.

اتجها صوب دكان تاجر. استقبلا هناك من قبل رجل بدا كأنه

على علم بمجيئهما. قادهما ذلك الرجل إلى فناء خلفي حيث وجدوا

نساء حاليات فوق أحواض يحركن بغرفات واسعة أوراقاً بلون أزرق

قاتم. في كل مكان من الدكان، كان هناك من هذا الشاي ذي اللون

الرائع. أخذ شارل ستوو منها عشرة صناديق.

لدى عودته إلى وانغ سألته:

- ما هو سرّ الشاي الأزرق؟ ولماذا لا نجده سوى في الصين

وليس في أي مكان آخر؟

نظر إليه الصيني وقال ضاحكاً:

- إنه ببساطة شاي أخضر مع القليل من بودرة الجبس. هذا ما

يجعله أزرق.

فهم عندئذ شارل ستوو غشّ الصينيين ومكرهم. كان هذا

الشاي يُباع كثروة حقيقية في لندن، في حين أنه لا يساوي أكثر من

أي شاي آخر.

ثم أضاف وانغ مخاتلاً:

- الصينيون لا يشربون الشاي الأزرق أبداً. هو لذيذ بالنسبة إلى

الإنكليز فحسب.

في اليوم التالي، عاد الرجلان إلى المصنع حيث أذاق وانغ ضيفه الشاي الأسود الذي يُصنع فيه. بدا هذا الشاي أيضاً لشارل معطراً أكثر من كل ما كان قد تذوّقه في أماكن أخرى. هناك أيضاً، كان شارل مفتوناً. لو تشين، أينما كان هو ملك الشاي، لا أحد بوسعه أن يضاهي إنتاجه. اشترى شارل ستوو الشاي الأسود بكميات هائلة، من ثمّ عاد الرجلان إلى طريق البيت. أثناء مسيرهما بمحاذاة النهر، التقيا بمركب خيزراني لمُدخني الأفيون. كان الليل على وشك الهبوط وبدأت السماء تمتلئ بالنجوم. عبر المركب بالقرب منهما، هادئاً، تضيئه شعلتان. لمح شارل ستوو بعض الرجال يسحبون الدخان من غلايين طويلة، مستلقين على ظهورهم، وجناتهم غائرة ونظراتهم مغتمة. لاحوا له كأنهم يتحركون داخل ضباب لا يتبدد، مثل كائنات غادرتها أرواحها.

لم تفارق شارل ستوو فكرة إنقاذ لوان. في أحد الأيام، سأل وانغ
بإلحاح أين يمكن أن يكون لو تشين. بقي وجه الصينى بارداً كالحجر.

- لو تشين شخص لا يمكن رؤيته. ليس من المعقول أن
أصطحبك إلى هناك.

- كنت أظن أن لا شيء ممنوع عليك.

- بلى. ممنوع بتاتاً إزعاج لو تشين. كما أن نصف مزارع الشاي
في الصين ملكه.

- ومن يملك النصف الآخر؟

- الإمبراطور.

جلس وانغ متربهاً على حصير ودعا الإنكليزي أن يحدو حدوه،

ثم أردف:

- دعنا لا نتكلم عن هذا بعد الآن.

صُفِّقَ بيديه، وللحال ظهر خادم يحمل صينية صُفِّقَ عليها مِغْلَاة ملىئة بالشاي وستة فناجين خزفية عليها رسوم مختلفة. اختار وانغ لنفسه فناجناً رُسم عليه زهرة الخشخاش، والإنكليزي واحداً رُسم عليه امرأة عارية. سكب الشاي ومدَّ له الفنجان بصمت. ارتشف شارل الشاي ببطء وهو ينظر إلى المرأة العارية وإلى هذا الرجل صاحب السلطة التي تبدو له منذ الآن تافهة.

- أي نوع من الخدمات يطلب منك لو تشين مقابل هذا

الشاي، سيد وانغ؟

كان وقع السؤال عليه كالساطور. وكذلك الجواب.

- ذلك لا يعنك.

- حتى ولو كان الأمر يتعلق بشيء ممنوع؟

توهجت نظرة الصيني، وامتلأت عيناه حقداً.

- يستحسن أن تعود إلى شغهاي. لا بد وأن بيرل بانتظارك

هناك.

ثم نهض وغادر الغرفة دون أن ينبس ببنت شفة ولا أن يبدي

أية حركة حائقة. مكث شارل ستوو دون حراك لوقت طويل، دون

حتى أن يشعر بأي ندم.

بعد ذلك، صار من السهل عليه أن يتأمل المرأة العارية فوق

فنجان الخزف، ويشرب على مهل الشاي الذي كان ما يزال ساخناً،

ويدرك أنه صنع لنفسه للتو عدواً.

على العشاء لم يعاود وانغ الظهور. ظلّ غير مرئي مثل لو تشين،

ذاك الذي لم يره أحد قط.

في تلك الليلة، أرق شارل ستوو. بات مستلقياً فوق فراشه لوقت

طويل يتطلع إلى النجوم عبر النافذة، وهو عالم أنه، من هذه الزاوية

بالتحديد، كان يراها للمرة الأولى.

حين استطاع في النهاية أن يغفو، كان يبلبل نومه حلم: حلم كان

فيه يبحر في مركب خيزراني بصحبة أشباح يدخنون الأفيون، ورجل لا

وجه له.

أصغى شارل لصوت العقل وعاد إلى شنغهاي. بعد عشرين يوماً
من الإبحار في النهر الأخضر، وصل أخيراً إلى مقصده.

عند وصوله، التقى بالحال ببيرل في أحد مقاهي المدينة. كان
الإيرلندي على أهبة أن يبيع ثلاثين صندوقاً من الشاي لتاجر إنكليزي
يُدعى توماس هاريسون. كان هاريسون قد أفلس نصف تجار
شنغهاي الآخرين. أعلن له الرجل أنه لن يدفع إلا عند الصفقة التالية.
رفض بيرل. بعد ساعة من الرثرة، انتهى إلى الاتفاق على مهلة تسليم
وسعر مقبول. غير أنه أقل بكثير من سعر السوق.

ما إن انتهت الأعمال ورحل التاجر، التفت بيرل ناحية رفيقه.

- حسناً، ظننت أنني لن أتخلص منه أبداً.

- خرجت ساماً من الورطة، قال ستوو.
- أنت قلت. هاريسون لص من أسوأ الأنواع. لن يدفع لي بالعملة. سوف يقايض بضاعتي مقابل أخرى.
- لماذا بعته إياها إذأ؟
- لنقل إنه لم يكن لدي الخيار فعلاً.
- أخذ بيرل بضعة أوراق شاي في جوف يده وشممها لشريكه.
- حسناً، هل وجدت عطر شاي هوي- شو على ذوقك؟
- كان شارل ستوو يفضل أن يحدثه هذه المرة عن شيء آخر غير الشاي، أن يذكر له مثلاً زهرة الخشخاش البيضاء على كتف امرأة...
- علمت أن هذه المرأة تُدعى لوان، وتحمل وشماً على كتفها.
- رفع بيرل رأسه
- هل ذهبت لرؤيتها؟

- نعم.

نظر الإنكليزي إلى بيرل مطولاً ثم قال:

- نحن شريكان الآن.

- بطريقة ما. أنت تعمل لدي وأنا أدفع لك نسبة. لست بحاجة

لأعرف المزيد عن ذلك.

- لا، الأمر يتعدى هذا. لا تنسَ أننا قطعنا عهداً بالدم.

ترك ستوو وقع كلماته تفعل فعلها في ضمير بيرل.

- حسن جداً. بماذا أنت راغب؟

- معرفة بعض الأمور.

- أنا مصغ إليك، قال الإيرلندي وهو يسكب لنفسه كأساً من

الويسكي.

استعاد شارل ستوو نفسه وقال:

- أرغب أن أعرف من تكون هذه المرأة وما علاقتها بتجارتك
وبتجارة وانغ. أريد أن أعرف من يكون لو تشين الذي على ما يبدو
كل الناس تخشاه، ويبقى عصياً لا يمكن الوصول إليه. أخيراً، أريد أن
أعرف من أنت حقاً، أنت الإيرلندي، وكيف تدفع ثمن كل هذا الشاي.
لم يكن شارل ستوو يبتسم. كان يمسك كأس الويسكي بيد
متشنجة. جسمه منتصب وصوته بارد لحد الدهشة. نظر إليه بيرل
مباشرة في عينيه. ثم قال له:

- أنت ترغب بشكل ما بمعرفة طعم المتاعب.

في ذلك المساء، دخلا ذاك المقهى القذر. وبينما كان بيرل يحتسي-
الويسكي ويدخن السيجار، روى له قصة حياته.
لم يكن قد التقى بلو تشين قط. كان يعمل مع وانغ فقط.
كان يعرف القليل عن لوان ويجهل كلياً أمر هذا الوشم. قال أيضاً
إنه لا يعرف شيئاً عن الذين يعملون لدى لو تشين. ولا يعرف نوع
التجارة التي كانت تُحَاك ما بين وانغ ولوتشين. وهو، على كل حال،
لم يكن ليشارك بها قط. قال أيضاً إنه يفضل الموت أمامه الآن على
أن يفقد صداقته.

قال له في النهاية إن كل الإيرلنديين قلوبهم طيبة لكنهم
يكذبون مثل الكذابين الأشرين، ووحدها الثمالة لها فضيلة تحريرهم
من الكذب وتمنحهم إرادة الاعتراف بما يضمرونه فعلياً في ضمائرهم.

طلب شارل ستوو زجاجة ويسكي ثانية. لم يكن قد حلّ منتصف الليل بعد، وهو ليس مستعجلاً في أمره. كان يملك الصبر وسوف ينتظر حتى الفجر لو لزم الأمر، لكنه كان سيعرف. ملأ كأس الإيرلندي ونظر إليه كيف يثمل.

حين أفرغت الزجاجة الثانية على آخرها، وبان على بيرل أمارات السكر، دنا من وجهه وهمس له:

- هذه المرة، سوف تقولها لي، الحقيقة.

حينذاك، أسر له بيرل أنه عرف لوان قبل ثلاث سنوات، وأنه بفضلها، التقى وانغ الذي لولاه لما كانت تجارته بالشاي مزدهرة على هذا الشكل. قال له أيضاً إن هذا الشاي الثمين والمطلوب جداً، يمرّ عبر مصنع وانغ، لكنه يشتريه مباشرة من لو تشين مقابل الأفيون. باح له كذلك أنه بواسطة هاريسون هذا، كان يتمكن من التزود بالأفيون الذي يرغب به، وأخيراً، عرف أن السلطات البريطانية كانت متواطئة في هذه التجارة.

- لماذا خلق كل هذا الغموض حول هذه المقايضة بين الشاي والأفيون؟ سأل شارل ستوو.

- الحكومة الصينية منعت شراء أو بيع الأفيون. من يتعاطى تجارته يخضع لعقوبة الإعدام.

- من أجل هذا أنت تحتاج إلي. كي أخطر بدلاً عنك؟
- أدفع لك مبلغاً باهظاً كي تُحضر هذا الشاي. أما فيما يتعلق بالأفيون، ذلك ليس شأنك. لست أنت من يسلم البضائع إلى لو تشين.
- أنت لا تجازف فعلاً. لا تجازف بتاتاً. ممّا تشتكي إذًا؟
- أراد بيرل أن يتحدث عن عهد الدم الذي كان يربطهما، غير أنه لم يكن بالأمر الضروري. فقد كان شارل ستوو يعلم جيداً أنه بعد كل هذه الاعترافات لم يكن أمامه من مفر.

- متى يتوجب عليك التسليم إلى لو تشين بالضبط؟
- كل شهر، ترحل سفينة إلى منابع النهر الأخضر. لماذا؟ هل تريد أن تشارك في الرحلة؟

- لم لا؟

شرح بيرل يضحك.

- تواكب بضاعة ممنوعة فوق نهر خطر وتجازف بحياتك
وتذهب لملاقاء رجل سوف يقتلك ما إن يراك. أنت غير قابل للإصلاح.
- سوف أقتله قبل أن يقتلني.

- حتى السلطات الصينية، لم تتمكن قط من مباغتته. كم من
الرجال عادوا من هناك، الجسم في جانب والرأس في جانب آخر. هل
تريد أن تفقد رأسك؟

- سبق وفقدته. أرغب بهذه المرأة.
نهض الإنكليزي عن كرسيه وهمّ بمغادرة المقهى، غير أن شيئاً ما
أوقفه في آخر لحظة. أمسك مسند الكرسي بأصابعه وأمعن النظر في
الإيرلندي، كمن يحاول يائساً سبر غور روحه.

- سؤال أخير. ما هو اسمها؟

- من؟

- لوان. قال لي وانغ إن لها اسماً آخر.

عقد بيرل حاجبيه.

- نسيته.

رأى شارل ستوو أنه من الأجدى ألا يلح.

- إذا عاودتك الذاكرة، أومئ إلي.

حيًا بيرل وغادر المقهى. في اللحظة التي كان سيعبر فيها الباب

ويغوص في ليل شنغهاي، سمع صوت الإيرلندي وراءه، صوتاً حلقومياً،

من كثرة الإفراط بالكحول والتبغ، لكنه احتفظ مع ذلك بعطر

الحقيقة.

- أظن أن اسمها أفيون!

II

في الشتاء التالي، عاد شارل ستوو وحيداً إلى هويّ - شو.

عندما رسا، أول شيء سمعه كان صوت موسيقا. نزل إلى اليابسة

وشاهد تينياً متعدد الألوان يتدحرج فوق الرصيف. كان وانغ هناك،

وعباءته الخضراء تتطاير في الريح.

- كنت بانتظارك، سيد ستوو.

لدى رؤيته نظرة الإنكليزي المتفاجئة، شرح له:

- إنها رأس السنة الصينية. لهذا يطوف التنين في المدينة.

بعد ذلك، دون أن ينتظر جواباً، مشى في الطريق المؤدي إلى داره.

بعد وقت وجيز، فوق الشرفة المليئة بالأزهار، أعلن وانغ:

- لن أستطيع مرافقتك إلى المصنع هذه المرة. بسبب الاحتفالات.

- أنا أفهم.

- تتدبر أمرك جيداً بمفردك.

كانت لهجته باردة وقطعية.

- أنت بلا شك على حق.

غير أن هذا ما كان يأمله، مع كل هذه السكينة الشاملة: السفر

والعمل وحيداً.

- أضع تحت تصرفك كل رجالي. اختر الشاي الذي ترغب به.

وعودة حميدة إلى شنغهاي.

شكره شارل ستوو، ثم ذهب كي ينال قسطاً من الراحة.

في البعيد، سمع صخب العيد وفكر أنه لم يكن ليشارك به.

في غداة اليوم التالي، ذهب إلى المشغل. راح يعمل بشغف وصمت. يختار الأوراق بحسب رائحتها، مثل أنف ينتقي الروائح التي ستشكل عطراً. مثل من يجمع باقة أزهار شذية للمرأة التي كان ينتظرها منذ سنوات. شيء ما سحري، شهواني ومببل.

حين عاد إلى هُوَي- شو، كان بحوزته ما يكفي من الشاي الأخضر والأسود لإرضاء طلبات بيرل حتى الموسم التالي.

اختار أن يقوم بانعطافة من الشارع الرئيس، عثر دون عناء على المنزل ذي المصاريع الخضراء، حيث التقى بلوان للمرة الأولى. كان مغلقاً. قرع على الباب عدة قرعات. لم يأت أحد ليفتح له. لكن شعوراً غريباً راوده وهو يبتعد عن المنزل، وهو أن لا أحد سكن هذا المكان.

عاد شارل ستوو عند وانغ الذي قدّم له فنجاناً من الشاي

الأخضر وقال له:

- هل أنت راضٍ؟

- نعم، ولكن يلزمي الشاي الأبيض. كما أن لوان لم تعد تسكن

في نفس العنوان.

عبس وجه وانغ على الفور:

- أظن أنها عادت لترى لو تشين. أما فيما يخص الشاي الأبيض،

فهو لا يُشترى.

- والأفيون أيضاً ممنوع، ومع ذلك، يبدو لي أنك تتمكن من

التزود به بسهولة.

اتخذ وانغ المظهر الأقل تأثيراً قدر ما أمكن، إنما من الواضح أن

السهم أصابه مقتلاً.

- إلى أين تريد أن تصل، سيد ستوو؟

- إلى الحقيقة.

ثم تابع:

- أعرف كل شيء، من الآن فصاعداً. وبعد بضعة أسابيع، أنا من

سيحمل الأفيون إلى لو تشين.

وقال أيضاً:

- أنت لم تفعل شيئاً من أجلها. لم تفعل شيئاً من أجل أفيون...

ضحك الصيني ضحكة صغيرة، ما لبثت أن أخافته. نظر إليه

بثبات بعينه السوداوين قبل أن يقول له بلهجة مزدرية:

- أظن فعلاً أنني لم أعد أستطيع القيام بشيء من أجلك. لو

قررت لقاء لو تشين. أنت هالك للأبد.

صمت طويلاً، ثم ختم وانغ قائلاً:

- من الآن فصاعداً، لن تستفيد من حمايتي في هذه المدينة.

من الحكمة أن تعود أدرجك إلى شغهاي وألا تضع قدمك هنا بتاتاً.

وداعاً، سيد ستوو.

عاد شارل ستوو إلى ميناء هويّ- شو، حيث كان رجال وانغ يnehون
تحميل بضاعة الشاي المرسله إلى بيرل. لما كانت السفينة لن ترحل
قبل المساء، استغل ذلك كي يتسكع في المدينة. هام على وجهه طويلاً
في أزقة حي التجارة. كانت عطور الشاي كلها الواصله إلى أنفه،
تشوش حواسه.

- من أين أستطيع أن أشتري الشاي الأبيض؟

سأل تاجراً ثرياً يتبعه ثلاثة رجال يحملون صناديق خشبية
مظلية بالدهان.

عندما رأى الرجل أنه على صلة برجل غريب، لاذ بالفرار. بعد
قليل، مرّ من أمام دكان تاجر. دخل إليه. رفضوا بيعه الشاي الأخضر.

الذي كان، مع هذا، أمام عينيه، على الرغم من النقاش الطويل والدعم الباطل من صداقته لوانغ. قبل أن يرحل، سأل التاجر دون أن ينتظر رداً بالإيجاب:

- من أين أستطيع التزود بالشاي الأبيض؟
- تردد الرجل، نظر إلى الإنكليزي وكأنه يكيّله.
- من هناك، حيث يقيم لو تشين.
- أين يقيم لو تشين؟
- يقال إنه يعيش عند منابع النهر الأخضر.
- وأين تقع بالتحديد هذه المنابع؟
- ما وراء هذه الجبال.

شرح له الرجل أن عليه أن يتجه إلى أعالي النهر الأخضر- بمركب

خيزراني، حتى منبع ماء خارج من صخرة مقدسة، حيث يولد هذا النهر العظيم.

- يقال إن لو تشين يعيش بالقرب من هذا النبع، في قلب موطن الشاي، مكان منعزل عن باقي العالم. ولكن، بحسب معرفتي، على الرغم من أن الكثيرين يدعون العكس، لا أحد على الإطلاق رأى لو تشين.

- لماذا؟

- ربما لأنه يختبئ جيداً بحيث يصبح غير مرئي. كان شارل ستوو، ومنذ أسابيع، لم يعد يفكر سوى بلوان وبلو تشين. ما قاله له هذا التاجر لتوه شحذ فضوله أكثر.

- وما سبب هذه الخلوة؟

عندما أدرك الرجل تماماً إلى أين يريد هذا الغريب أن يصل، وضع حداً للنقاش بلهجة حازمة:

- ولكن بالتأكيد، هذا لا يعنيك. وحدهم الصينيون يُسمح لهم

باختراق تلك المنطقة.

حين عاد إلى شنغهاي، أعلن شارل ستوو لبيزل:

- حسمت أمري. أنا من سيرافق حمولة الأفيون التالية إلى لو تشين.

- على راحتك. ولكن ماذا إذا لم تعد؟

- حينئذ، سيكون من السهل عليك نسياني.

وترك الإيرلندي.

أعاد بيع جزء من الشاي الأخضر الذي وصله إلى رجل فرنسي-

كان عائداً إلى باريس. كان يُدعى ماسون ويزاول تجارة البضائع

القادمة من الشرق. كان يملك دكاناً أنيقاً بالقرب من ساحة مادلين،

يحاول أن يقدم فيه إلى زبائنه الأثرياء المنتجات الأكثر غرابة والأكثر

ابتكاراً في القارات الخمس. عندما اكتشف بضاعة ستوو، نقده

الفرنسي ثروة حقيقية، وهو على يقين بالطبع من أنه سيعاود بيعها

بسعر أعلى بكثير.

- ومن أين يأتي هذا الشاي الأخضر؟ سأله ماسون.

نظر شارل ستوو في عينيه تماماً وأجابه:

- من مكان مقدس.

بعد مضي ثلاثة أسابيع، كان شارل ستوو يعدّ نفسه للرحيل في رحلته الأخيرة إلى موطن الشاي. إلى أعالي النهر الأخضر في قلب مملكة لو تشين. هناك حيث لم تطأ قدم غريب قط.

- ماذا ستفعل هناك، في قلب الصين؟ كانوا يسألونه في الجمعية البريطانية في شنغهاي.

كان ستوو يردّد بهيئة غير مكترثة وباستهزاء مخاتل.

- أرافق ببساطة الأفيون!

الأفيون، يتيح تذوق المتع الأكثر شهوانية، وهو في أغلب الأحيان
محرّم. مثل كل ما يقع تحت طائلة الحظر، أضحى الأفيون في الصين
سلعة نادرة وباهظة الثمن.

في العام ١٨١٦، فوّضت الحكومة البريطانية إلى سفيرها اللورد
أمهيرست في بكين عقد علاقات تجارية مع الصين. أمام رفض إمبراطور
الصين، وجدت إنكلترا العرض: الأفيون. كان يُزرع تحت وصاية
بريطانية في منطقة البنغال في الهند. أصبح بسرعة خارقة البديل
الرئيسي مقابل الشاي تجارياً. على الرغم من المنشور الذي كان يمنعه،
انتشر المخدّر في كل الصين.

في العام ١٨٣٩، أصبح استيراد الأفيون هائلاً جداً لدرجة أن

إمبراطور الصين قرر قطع العلاقات مع إنكلترا.

فَوَّضَ الإمبراطور إلى رجل يُدعى لين، إتلاف حمولات الأفيون

القادمة من الهند. قام المفوض لين بما هو أفضل من ذلك. فتش كل

السفن البريطانية. حتى وصل الأمر بسرعة خارقة إلى الصراع المسلح.

في تلك السنة ١٨٣٨، كابدت مدينة كانتون أول قصف من قبل

الأسطول الإنكليزي. وهكذا بدأت بين إنكلترا والصين ما سُمي بحرب

الأفيون الأولى.

في حقيقة الأمر لم يفت شارل ستوو شيئاً من هذا. كان يعلم

أيضاً أنه إذا اختطف، سوف يحكم بالموت. لم يكن لديه أية رغبة

بالموت، لكن التفكير برؤية لوان مجدداً جعله ينسى كل معاني الخطر.

غادر شارل ستوو شنغهاي ذات صباح ربيعي من العام ١٨٤٠،

على متن مركب خيزراني محمّل بالأفيون. ارتحل هكذا خلال أيام

طويلة في النهر الأخضر، دانياً شيئاً فشيئاً من المنابع المحظورة.

لدى تجاوزه مدينة هويّ - شو. تحقق الإنكليزي من أنه ذاهب

هذه المرة حتى نهاية رحلته.

- الآن، سيتوجب علينا أن نراقب بحذر شديد، قال الملاح. لم

يخترق هذه البلاد أي غريب قط، باستثناء بعض المبشرين الذين لم

يعد البعض منهم. غير أنني ما أزال أستطيع أن أنزلك هنا.

التفت شارل ستوو إليه ونظر إليه من رأسه حتى قدميه:

- مستحيل:

- لماذا مستحيل؟

التفت الإنكليزي ناحية الملاح وانتظر برهة طويلة قبل أن يجيب:

- يجب أن أعرّ على طريق الشاي.

بعد مدينة هويّ- شو، لم يكن هناك سوى قرى صغيرة وسط
حقول الرز. كانوا يمشون بمحاذاتها للتزود بالموءن. أثناء الليل، كانوا
يرسون في أماكن بعيدة عن كل سكن، ويعاودون الرحيل في أغلب
الأوقات قبل الفجر، اتقاء من الزيارات غير المتوقعة للفلاحين
والبائعين والسارقين والعسكريين.

ذات يوم، توقفوا بالقرب من دير حيث يوجد، بحسب قول
الملاح، أجمل مزارع الشاي في الصين كلها.

وقف الرجلان أمام المبنى، منهكين إنما سعيدين. قرعا على
الباب. جاء راهب يفتح لهما. شرع الملاح يحدثه بلغة كان ستوو لا
يعرفها. ثم ابتسم الراهب، توارى وتركهما يدخلان. ما رآه الإنكليزي

عندئذ كان مشهداً أقرب إلى السحر. كان أمام ناظريه بساط من الأزهار البيضاء، بدا بانتظاره منذ الأزل.

عرض شارل ستوو على الراهب أن يشتري منه مئة شجيرة. وافق الراهب شرط أن يُدفع ثمنها ذهباً. نظر إليه الإنكليزي حائراً.

- مستحيل، لا أملك سوى الأفيون.

هذه المرة، الراهب هو من بدا مندهشاً.

- الشاي الأبيض يُشترى بالذهب.

- ربما. لكن ليس معي ذهب.

- أنا آسف إذأ.

رغم ذلك، وبعد نقاشات طويلة، وافق الراهب على أن يستغني

عن غرسة شاي أبيض مقابل بضعة عشرات من الليات.

- هكذا، قال ستوو وهو يحمل بين يديه الشجيرة الثمينة، لو

عدت حياً من هذه المغامرة، سيكون هذا هو الإثبات.

في اليوم التالي، اقترب المركب الخيزراني من المنابع السرية. كانت تظهر عند الأفق أول قمم جبال موطن الشاي. تقدموا لبضعة ساعات في إحدى القرى.

- بإمكاننا التزود بالموءن دون لفت الالباباه. لا يوجد هنا ناهبون، وكذلك القليل من العسكر.

قبل أن يعاودوا الرحيل، ارتووا في النزل الوحيد، باذلين ما بوسعهم كي يظلوا متكتمين. حين كان يسألهم أحد شيئاً، وحده الملاح كان يتكلم. وشارل ستوو يكتفي بالابتسام وحنى رأسه كدليل احترام. في ساحة القرية، على بعد خطوات منهم، شاهدوا مجرمين يتعرضون للعباب باسم المجتمع. بعضهم كانت شفته السفلى مقطوعة.

- ماذا فعل هؤلاء الرجال كي يستحقوا عقاباً كهذا؟ سأل شارل

ستوو.

- هؤلاء مدخنو أفيون. شرح الملاح. تُقطع شفتهم السفلى

لمنعهم من معاودة الاستسلام لرديلتهم المفضلة.

أبحروا لثلاثة أيام أيضاً ببطء لا متناه، إذ أصبح النهر ضيقاً جداً
وقليل العمق لدرجة كانوا يخاطرون باستمرار بالاصطدام بالمياه
الضحلة والجنوح داخل الوحل. وفي أحيان أخرى، كانت المياه تقل
جداً بحيث كان يتوجب عليهم النزول إلى اليابسة وجرّ المركب بحبل
طويل. كان البحارة منهكين ويقطرون ماء من المطر. في المساء، كانوا
يتنشقون حول نار كي لا يموتوا من البرد، وتنبعث من جلودهم عطور
الطحالب وثمار العنّاب البري.

سأل الملاح شارل ستوو عند ذاك.

أنا لا أفهم لماذا تكابد صعوبات كهذه وتعرض نفسك للمخاطر،
لماذا أنت راغب إلى هذا الحد بالذهاب إلى هناك؟ أفي سبيل بضعة
غراس من الشاي الأبيض.

لم يستطع الإنكليزي أن يكشف له عن مرامه، فشرح له كيف
يمكن للإنكلترا ببضعة عشرات من الغراس أن تستغني قريباً عن الصين.
ولم يقل له إنه راغب برؤية امرأة عيناها خضراوان مرة جديدة.
نعم. من أجل الشاي الأبيض. كذلك، لو راح كل الرجال يبحثون
عن تفسير لجنون أعمالهم، لما كان هناك مغامرون منذ زمن بعيد.

أخيراً، كانت نهاية الرحلة. وصلوا ذات صباح إلى وادٍ خصيب، تحيط به الجبال العالية المغطاة بمزارع الشاي، حيث كان النهر الأخضر عبارة عن ساقية رفيعة هادئة وساكنة. لم يعد بإمكان المركب أن يتقدّم أبعد من ذلك.

- ها نحن، قال الملاح، ها هي ذي نهاية الطريق.

- هنا؟ سأل ستوو. لكنني لا أرى أحداً.

- ومع ذلك، هنا أسلم الأفيون. معسكر لو تشين قريب جداً،

يقع في هذه الغابة. يجدر المشي منذ الآن.

- أين هو؟ أنا لا أرى أي درب. ليس هناك سوى الأشجار.

ابتسم الملاح.

- يجدر المشي داخل النهر بالطبع.

استغرق شارل ستوو وقتاً للذهاب وإحضار شجيرته الغالية ذات

الأزهار البيضاء. ثم نزل وحيداً في المياه التي كانت صافية وجليدية.

- سأذهب للقاء لو تشين.

- إذا لم تعد قبل مساء الغد، لن أكون قادراً على فعل شيء من

أجلك، قال الملاح.

قام الإنكليزي بحركة كمن يقول: لا تقلق. ثم رحل. مشى على

هذا النحو لأكثر من نصف ساعة. كان ينتظر بفارغ الصبر لقاء لو

تشين، حتى إنه ما عاد يشعر بلامسة المياه الجليدية. كان يحمل في

حزامه خنجراً معقوفاً. كان يبدو له أن هذا السلاح، بقدر ما هو غير

نافع، هو وشجيرته الهزيلة، لكنهما كانا يحميانه من كل شر.

عندما بان أمامه المعسكر، قال شارل ستوو لنفسه: أخيراً سوف

أعرف من هو لو تشين.

اختار شارل ستوو أن يتقدّم مكشوف الوجه. خرج من مجرى

النهر واتجه ناحية المعسكر.

ظهر على الفور رجل وأتى لملاقاته. كان منغولياً بهيئة باشة مثل

نسر. مسلح ببندقية. انتظر أن يدنو منه الغريب وصوبها نحوه ثم

سأله:

- من أنت، وماذا أتيت تفعل هنا؟

ردّ ستوو باللغة الصينية بلهجة خفيفة:

- أتيت كي أرى لو تشين. وأسلمه الأفيون.

أخضض الرجل سلاحه، نظر إلى وجهه مطولاً، ثم دله إلى خيمة

أوسع من الأخريات.

- هذه خيمة لو تشين.

شكره ستوو بإيماءة من رأسه، اقترب ودخل. داخل الخيمة، ثمة

رجال مستلقون فوق حصر، كانوا يدخنون غلايين خشبية طويلة في

أياديهم. وجوههم ناحلة، وهم في حالة هزال شديد. في عيونهم، كان

بالإمكان قراءة ما سرق الأفيون من أرواحهم...ومع هذا، هم هنا،

هادئين، وادعين، وكانهم خارج الواقع.

نظر الإنكليزي إليهم مطولاً، وقد راوده شعور أنه بمواجهة جثث.

- مساء الخير، سيد ستوو، قال صوت خفيض وغريب. أظن أنك

كنت تبحث عني.

وجد ستوو في آخر الخيمة ستارة قماشية، يظهر وراءها خيال.
إلى جانبه فانوس ترتعش في داخله شعلة ذهبية. بدا الأمر غريباً،
كأنه يتأمل لوحة متحركة داخل متحف سحري. ظلّ ونور. لوحة
لو تشين.

كان سلطان الشاي هناك، أمام ناظره. ولم يكن بوسعهِ رؤية وجهه.

- سعيد بلقائك أخيراً.

- أنا أيضاً، سيد ستوو. تفضل إذأ واجلس قبالي.

كان الصوت آتٍ من وراء قبر، خفيضاً وعميقاً جداً إلى حد لا

يبدو فيه طبيعياً. ربما لأنه كان صوت خيال. تقدّم الإنكليزي رويداً

رويداً إلى أن لامس القماش. حين صارت يده لا تبعد أكثر من بضعة

ستمترات من وجه لو تشين، سارع اثنان من مدخني الأفيون ووضعاً

نصلي خنجرهما على عنق الغريب. قال صوت لو تشين:

- لا تلمس هذا القماش. لو حاولت رؤية وجهي، لن تخرج من هنا حياً.

أطاع شارل ستوو، جلس متربهاً قبالة الخيال وانتظر.

- لماذا أتيت إلى هنا؟ كي تقتلني، أليس كذلك؟

ارتعش شارل ستوو. ثم استعاد هدوءه:

- أتيت كي أسلمك الأفيون. ليس أكثر من ذلك.

بقي لو تشين ساكناً وصامتاً. ثم أطلق بصوت حازم:

- أنت تكذب!

جفل ستوو.

- أعرف أنك أتيت من أجلها. أعرف أنك أتيت من أجل لوان.

وأنت عازم على قتلي.

لم يعرف الإنكليزي ماذا يردّ. كان مرتبكاً كلياً أمام هذا الرجل.

في تلك اللحظة، أدرك أنه لن يقتل لو تشين أبداً، وأن حياته ستنتهي

هنا دون أدنى شك.

- هذا صحيح. أرغب بهذه المرأة. أين هي؟

أطلق لو تشين ضحكة من صدر أجشّ.

- إنها هناك، لكنها ملكي.

- هي ليست ملكك إلا في نطاق معاملتك لها كعبدة. لو كان

بوسعها لهجرتك.

- هل تعبت معي سيد ستوو. بالتأكيد، لا تنقصك الشجاعة كي

تأتي وتستخف بي على هذا الشكل. آخرون كثر قُطعت رؤوسهم

لأسباب أقل من ذلك.

- إذا كان لا بد لي أن أموت، أريد بشدة أن تكون لحظاتي

الأخيرة مشرفة.

صمت طويل.

- لن أقتلك، لكنني سوف أعرض عليك لعبة صغيرة. أنت ترغب

بلوان؟ حسن جداً. أتنازل لك عنها... لنقل لمدة من الزمن، محدودة جداً.

- كم من الوقت؟

- سبعة أيام وسبع ليال. إنه الوقت الذي يلزمي للقيام برحلة

إلى الشمال والعودة من هناك...

وكمن يطلق حكماً بالإعدام:

- بعد ذلك، أعود إلى هنا، إلى المعسكر. فإذا كنت ما تزال

هنا، أقتلك!

ارتعش ستوو.

- لماذا تفعل ذلك؟

راوغ الصيني.

- سيد ستوو، هل سبق لك وتذوقت الأفيون؟

- لا.

- لم يفت الأوان قط كي تكتشف طعم بعض الأشياء. وسوف

ترى كم هو قاس التخلي عنها فيما بعد.

صُفِّقَ لو تشين بيديه، فأحضر- رجل للإنكليزي غليوناً محشواً

بالأفيون. حملة إلى شفتيه، تنشق أول نفس وأغمض عينيه. وصله

صوت لو تشين من وراء الستارة:

- سافراً سعيداً، سيد ستوو.

كان ذلك مثل خلاص بعد طول انتظار. في ذلك المساء، دَخَنَ

شارل ستوو مطولاً، قبالة ذلك الرجل الذي بحث عنه خلال أسابيع

طويلة ولن يراه أبداً.

تحت تأثير الأفيون، انتهى شارل ستوو إلى النوم، مطمئناً،

ولامس راحة لم يعرفها من قبل.

في اليوم التالي، أفاق شارل ستوو حوالي الظهرية. كان ما يزال في الخيمة، لكن لو تشين ورجاله لم يعودوا هناك. عندما فتح عينيه، كان إلى جواره امرأة. امرأة صينية. عيناها خضراوان وشعرها أسود طويل، كانت تدخن الأفيون.

- من أنت؟ سأل.

- ألا تتذكرني؟

اعتدل شارل ستوو فوق فراشه.

- أفيون!

شرعت المرأة تضحك. كانت تحمل وشم زهرة الخشخاش

البيضاء على كتفها.

- أحب أن تنادينني لوان.

كان سعيداً بالعثور مجدداً على هذا الوجه وزهرة الخشخاش
البيضاء اللّذين لم يكفأ عن ملاحظته منذ لقائهما الأول. إنها كان عليه
أن يعرف شيئاً:

- هل غادر لو تشين حقاً؟

تردّدت لوان قبل أن تجيبه. وضعت يدها على جبينه وأزلقت
إصبعها على طول خده.

- نعم، بالتأكيد قد رحل كي يسلم الأفيون الذي أحضرته له.

بوسعك البقاء هنا ستة أيام، لا يوم أكثر، كما قال. لا تنسَ أنه لو
وجدك لو تشين هنا لدى عودته، سوف يقتلك.

أراد أن يحدثها، لكنها أشارت عليه بالصمت. ثم استلقت إلى

جواره وأطبقت شفيتها فوق شفتيه.

خلال ستة أيام وست ليالٍ، كان بوسع الإنكليزي أن يدخن الأفيون ويمارس الحب مع هذه المرأة. كان الأفيون يمنحه شعوراً بالحرية التامة، وبالإنارة المبلبلة، ويتيح له السفر حلاً إلى فردوس غير مُباح. كان لديه هذا الإحساس الغريب والجديد من رؤية تخيلاتهِ الأكثر إثماً عارية أمامه.

كانت لوان تتبّع دوماً الطريقة نفسها. كان لديها صينية وُضع عليها غليون طويل، ومصباح كحوليّ، وإبرة كبيرة مع علبة تحتوي على العجينة. كانت تشعل المصباح، تنزع القليل من الأفيون، تسخّنه فوق الشعلة، تنتظر أن يتخذ لواناً ذهبياً، ثم تحشوه داخل الغليون وتشرع بالتدخين. فيما بعد، كانت تمدّ الغليون إلى الإنكليزي وتُنظر إليه كيف يدخن بصمت. باقي الوقت، كانا يتقاسمان جسديهما.

في صباح اليوم التالي، خرج شارل ستوو قليلاً من خدره وأخذ يفكر في الملاح. ارتدى ملابسه وسارع إلى النهر. سار حتى المكان الذي ترك فيه مرافقه، واكتشف أن المركب الخيزراني قد رحل من دونه. مكث بلا حراك لوقت طويل يمعن التفكير، ثم عاد والتحق بالمعسكر. داخل الخيمة، وجد لوان.

في ذلك اليوم، وشمّت له على ظهره في المكان المحدّد الذي كان لديه فيه ندبة، زهرة خشخاش، زهرة شعر بأثرها اللذيذ فوق جلده.

- ماذا يعني هذا الوشم؟

رسم على الرمال الشكل الذي استطاع رؤيته بالمقلوب في انعكاس مياه النهر.

ظلت لوان صامتة من الدهول. ثم اعترفت في النهاية وهي على مضض:

- لا أستطيع أن أقول لك.

- لماذا؟ لأنني الآن مُلك للو تشين؟

نظرت إليه بصمت، بحدّة في عينيه، لم يعهد لها من قبل. ثم

بحركة موسومة بالرقّة، وضعت رأسها فوق كتفه.

كان شعوراً خفيفاً، مثل الإحساس برفرفة أجنحة فراشة.

- أفيون! لوان!

مستلقياً فوق فراشه، لم يتوقف شارل ستور عن مناداة المرأة الفتية. تحت تأثير الهديان، كان يمسك بيده غليون الأفيون الطويل الذي أصبح رفيقه من الآن فصاعداً.

كانت لوان حينذاك تقترب وتتكور بلمصقه.

في الخارج، كان الليل ينسدل ببطء فوق المعسكر والغابة من حوله. كان لبشرة لوان طعم المطر، ويفوح من شعرها عطر الفانيليا، ومن فرجها رائحة فاكهة ناضجة، وللسانها شذا الأفيون.

- لو تشين، هو من علمك التدخين؟

لم تُجب لوان. رمقته بنظرة غريبة ومدّت له غليوناً.

نهض ستوو عن فراشه، جلس متربعاً وراح يراقب المرأة
الفتية ويدخن بتلذذ. أرخت لوان رأسها على كتفه وأخذت يده
بيدها. أمعنت النظر فيه بعينها الخضراوين. مرّ برفق أصابعه في
شعرها وقال:

- أبدأ لن أتركك. أبدأ.

شعر بضغطة خفيفة من يد لوان فوق راحته، كانتفاضة أمل، ثم
ارتخاء. ران صمت طويل.
قالت لوان أخيراً:

- سوف تتركني. أنت أيضاً سينتهي بك الأمر إلى الرحيل.

في اليوم الرابع، سبحا عارين في مجرى النهر. ثم تمّدا على الضفة
تحت الشمس.

في اليوم التالي، قاما بمسير داخل الغابة. مشيا بمحاذاة جرف صخري
وأرته لوان مكاناً خيالياً.

- من ها هنا ينبع فعلياً النهر الأخضر. داخل تلك المغارة، الماء
الناجم عن ذوبان الثلوج ينزل شلالاً، ويأتي كي يغذي هذا الحوض
الطبيعي الذي تزيده الأمطار اتساعاً أيضاً.

أراد ستوو أن يدخل إلى تجويف الصخرة، لكن لوان منعتة من ذلك.

- هنا أيضاً، يخبئ لو تشين بضاعته من الأفيون. الدخول
ممنوع إلى هنا.

في تلك اللحظة، خرج من الأدغال رجلان مسلحان واتجها نحوهما.

لدى رؤيتهما لوان، عادا أدراجهما دون صوت داخل مخبئتهما.

- لهذا السبب تبقى المنابع عصية، إلا فيما ندر. قال الإنكليزي.

- هذان الرجلان، ليسا الحارسين الوحيدين للمغارة. هناك من

هو مخيف أكثر منهما.

- آه، صحيح؟ ومن هم؟

لم يتسنّ الوقت للوان كي تردّ. في تلك اللحظة، فرّ سرب من

الخفافيش أمامهما حتى أظلمت السماء.

في اليوم السادس، بدأت تمطر فمكثنا ملتجئين تحت الخيمة.

في عشية اليوم السابع، شارل ستوو المفعم جسارة مستجدة

عليه، منحه إياها الأفيون، لم يستطع منع نفسه من أن يقول للوان:

- أريد التحدّث إلى لو تشين.

- أيضاً هذه الفكرة الجنونية؟ ما الذي سينفكك أن تموت؟

- لا أريد الموت، أريد أن أتحدّث إليه فقط. ورؤيته.

- ما إن ترى وجهه، حتى يُقطع رأسك.

- على ذلك، إذا كنت لا أستطيع رؤيته ولا البقاء هنا، ربما

تستطيعين الفرار معي.

نظرت إليه بعينين حزينتين.

- لا. سيعثر علينا لو تشين أينما كنا، وسوف يقتلنا.

- إذأ، لا يوجد خلاص.

- لا، يجدر بك الرحيل.

داعبت وجهه مطولاً، وقالت أيضاً:

- أرجوك، لا تفسد الوقت القليل الباقي لدينا لنعيشه معاً.

في اليوم السابع، لم يعد شارل ستوو يشك أن لو تشين سوف يصل ويضع تهديده موضع التنفيذ فيما لو لم يغادر المعسكر. غير أنه، متحدياً، تبرم من الرحيل.

وصل أحد رجال لو تشين حوالي منتصف النهار. كان واحداً من رجال الاستطلاع. عندما رأى ستوو لم يستطع كظم تكشيرة.

- عليك أن ترحل قبل حلول الليل. بعد ذلك، سيكون قد فات الأوان عليك.

زادت عليه لوان:

- من غير المجدي أن تخاطر بحياتك في سبيل حياتي. توسلت إليه:

- سبق وقلت لك. لا يمكنك البقاء هنا. سوف يقتلنا نحن الاثنين. ولن تستفيد شيئاً.

أدرك شارل ستوو أن عليه الطاعة. قبل أن يرحل، التفت مرة

أخيرة ناحية لوان.

- موافق، سأرحل... لكنني سأعود.

- لن تعود.

- بلى، أعدك بذلك.

كانت تعرف أنه يتحدث بكل صدق ممكن، فهمست:

- أنت مجنون، لكنني لا أستطيع شيئاً حيال جنونك.

قبل أن يتركها، قبلها. ثم وهو يحمل بيده الشجيرة ذات الأزهار

البيضاء التي باعه إياها الراهب، خرج من الخيمة وجرى تحت ستارة

المطر المنهمر من السماء.

مشى طويلاً في مجرى النهر محدثاً أقل ما يمكن من الضجيج.
فيما بعد، عندما صارت المياه عالية كفاية، استطاع أن يسبح ويتحرك
بشكل أسرع. كان يلوح له أن الخطر في كل مكان من حوله، وأن
رجالاً يراقبونه باستمرار. كان خائفاً أكثر بكثير مما كان عندما أوصله
الملاح إلى هذا المكان النائي.

كان وحيداً، ولوان لم تعد إلى جواره، ولم يكن هناك أي سبب كي
يشعر بالأمل.

انجرف في المياه حتى حلول الليل. وصار الأمر كمن يدخل في
عالم الظلمات.

في اليوم التالي، استيقظ وهو ممدد على الضفة. كان النهر قد حمله من مجراه إلى أمان اليابسة. وقف وقرر الذهاب دون تأخير. عاد إلى النهر وشرع يسبح. في البعيد قليلاً. صادف أول قرية صيادين. سرق مركباً خيزرانياً وأدرك حينها أنه نجا.

خلال عدة أيام، جُدِّف وحيداً تماماً. كان لا يتوقف سوى ليلاً للنوم. كان يستلقي في قعر المركب ويتطلع إلى النجوم التي كانت تضيئها هالة القمر الشاحبة في سماء الصين.

بعد بضعة أيام، وصل شارل ستوو إلى ضواحي هوي- شو. أراد أن يرتوي فقطف ثمرة مانغا من على غصن كان يتدلى فوق المياه. منذ رحيله، كان يقات فقطف بما كانت تقدّمه له نباتات النهر. أدار المركب ناحية الغصن، وهمّ بامسك الثمرة ليقطفها. عندما أخذ المانغا بيده، لم يحسّ بعضّة الأفعى في طرف إصبعه الصغير. عند سماع هسيسها الزاحف فقط أدرك ما جرى. أطلق صرخة، صرخة واحدة فقط. رأى أيضاً بريق ضوء أخضر ينزلق من الغصن ويسقط في النهر. ثم غاب عن الوعي.

III

عندما استيقظ، كان، بمنأى عن الخطر، ممدداً فوق سرير

معسكر، داخل قمرة قبطان سفينة مبحرة فوق النهر الأخضر.

- حسناً، قال القبطان ماك آرثر، لقد أفزعتنا كثيراً. ظننت أنك

لن تستيقظ أبداً.

- أين أنا؟

- أنت بأمان على ظهر سفينة حربية بريطانية في طريقها إلى

شنغهاي.

- ما الذي جرى؟

- عثر عليك فلاحون منذ يومين على ظهر مركب خيزراني فوق

النهر. كانت قد لدغتك أفعى. اعتنوا بك، ثم أخذوك إلى المستشفى

العسكري في هوي- شو. عثرنا عليك هناك في النهاية.

رفع شارل ستوو رأسه ناحية القبطان وعاد فسقط من جديد

فوق فراشه.

- خذ، علي أن أعيد إليك هذه! كنت تضمها إليك مثل طلسم.

لم يجرؤ أحد على سرقتها منك.

مدّ إليه غرسة الشاي الأبيض. كل ما بقي لديه من هذه الرحلة

العجيبة في بلاد الشاي والأفيون. أخذها شارل ستوو وهو يتساءل إذا

كانت هذه النبتة الوحيدة تؤكد كل ما قاساه حتى الآن. بعد ذلك،

لشدة التعب، ما عاد يفكر بها.

- عد إلى النوم، قال ماك آرثر. سنعود قريباً إلى شنغهاي وسوف

تنسى كل حوادثك المزعجة.

- لا أريد أن أنسى شيئاً.

نهض القبطان.

- ربما أنت لا تعرف، لكن الحرب بين الصين وإنكلترا مستمرة.

وهذا سبب وجودنا على هذا النهر. أنت على متن سفينة حربية.

كان ماك آرثر على وشك مغادرة القمر، عندما كانت ما تزال

لدى الإنكليزي القوة كي يتمتم:

- ولكن بالنسبة إلي، انتهت.

ما إن وصل شارل ستوو إلى شنغهاي حتى انتابته حمى شديدة.

عندما خلع قميصه أمام الطبيب الذي استُدعي، اندهش الرجل من

وشمه وسأله:

- ما هذا المهر الغريب؟

شارل ستوو، دون حتى أن ينظر إليه، أجاب:

- هذه زهرة خشخاش، وشمته لي امرأة صينية.

- في شنغهاي؟

- لا. عند منابع النهر الأخضر.

شرح الطبيب يضحك.

- لا شيء غير ذلك؟ ولكن أي نوع من المغامرين أنت إذا؟

- كنت أول المستكشفين الذين وصلوا حتى نهاية طريق الشاي،

وأخر تاجر للأفيون دون شك.

رقمه الطبيب بنظرة حيرى لكنها مليئة بالفضول. ثم سأله وهو

يعاينه:

- ما معنى هذا الوشم؟

- معناه أني مُلك لأحدهم. شخص لا أعرف وجهه.

ثم، بعد لحظة قال:

- شخص، له وجه الأفيون.

بعد عدة أيام، ذهب شارل ستوو عند بيرل. كان الإيرلندي يهَم
بمغادرة الصين. الآن ونار الحرب بين إنكلترا وإمبراطورية الصين
العجوز اشتد وطيسها. لم يعد هناك تجارة ممكنة. أضحت البلاد كل
يوم أشدَّ خطراً على الرعايا البريطانيين.

قال له شارل ستوو:

- رافقت الأفيون حتى لو تشين. غير أنني لم أر وجهه قط.

- أعرف.

ابتسم الإيرلندي على نحو غريب، كأنه مسرور بهذا الفشل.

- ربما لم أستطع شيئاً حيال لو تشين، لكن هذه المرأة عشقتني،

وأنوي العودة لإحضارها. ذات يوم.

نظر إليه بيرل وكأنه يراه للمرة الأولى، بذهول ممزوج بالازدراء

الشديد.

- غبي! لم تفهم شيئاً إذا؟

- ماذا؟

- لوان لم تعشق أحداً قط. استخدمتك فحسب.

- كيف ذلك؟

- حمولة الأفيون، كانت مرسلة لها.

لم يستطع بيرل التوقف عند هذا الحد:

- لو تشين، إنه هي.

تجمد الدم في عروق ستوو.

- لهذا ندعوها أفيون.

- ولكن، لماذا كل هذه المهزلة؟

- من أجل الخوف الذي يوحيه لو تشين. وقبل كل شيء، في سبيل الاستمرار بتجارة الشاي والأفيون دون مخاطر. باستثناء وانغ وأنا، لا أحد يعلم شيئاً قط. لا أحد تمكن من وضع يده على لو تشين قط. لسبب بسيط جداً، لأنه غير موجود.

أحسن شارل ستوو بقلبه ينفطر. لقد أمسك بها بين ذراعيه، تلك المرأة التي جعلته يؤمن بالحب. ولم يحزر شيئاً.

- عزيزي شارل المسكين، كيف يمكن أن تكون على هذه الدرجة من السذاجة؟

سحب بيرل نفساً من سيجاره، ثم سكب كأساً ويسكي وقال متثائباً:

- أنا ذاهب للنوم. غداً، أركب البحر نحو دبلن في الصباح الباكر. كل هذه القصة انتهت الآن. وداعاً.

نهض وقال أيضاً:

- يستحسن أن تعود إلى لندن. وألاً تعاود التفكير بها.

ثم غادر الشرفة.

بقي شارل ستوو جالساً لوقت طويل، يرتشف شرابه بجرعات صغيرة، بينما كانت الشمس أمامه تخبو. فكّر أن السعادة لا تُدرك باللمس، مثل نفحة أفيون، وسريعة الزوال مثل جرعة شاي. لقد آمن بحب لوان. غير أنه لا يمكن الهروب من قدره، وقدره لم يمنحه سوى سبعة أيام وسبع ليال مع هذه المرأة.

كان قد وعدّها بالعودة. لن يعود أبداً.

دون أن يقرّ بذلك، كان شارل ستوو يعلم جيداً أن أجمل الوعود، حتى لو انتهت هباء ذكرى، فهي لا تعبر ساعة الزمن الرملية أبداً.

بعد مضي أسبوع، تلقى شارل ستوو زيارة رجل إنكليزي اسمه روبرت فورتون. قدّم فورتون نفسه كعالم نبات راغب باكتشاف أسرار الشاي الصيني. كان قد سمع حديثاً عن ستوو ورغب بالتعرف إليه. استقبله شارل ستوو وهو ممدّد على سريره، إذ إن الحمى كانت ما تزال تمنعه من البقاء واقفاً دون أن يكون واقعاً تحت تأثير الدواء. الاضطراب الذي وقع في نفسه من جراء مكاشفات بيرل بخصوص لوان لم تدعه يرتاح لحظة واحدة.

- هل وصلت حقاً إلى أعالي النهر الأخضر؟ سأله فورتون.

- نعم. ماذا؟ هل يشكّل هذا جزءاً من مشاريعك أيضاً؟

- ربما. كل شيء متعلق بما ستقوله لي.

- ماذا تريد أن تعرف؟

كان فورتون يمسك قبعته بيده، منفعلًا، طائعاً أمام هذا الرجل

الذي حَقَّق جزءاً من أحلامه.

- ماذا أحضرت من هناك، سيد ستوو؟

- ذكريات.

أشار شارل ستوو إلى غرسة الشاي الأبيض الصغيرة التي باعه

إياها الراهب.

- أحضرت هذه أيضاً.

تأمل فورتون غرسة الشاي المقدسة بعشق ولمعت نظرتة.

- معجزة. أشتريها منك. كم تريد ثمنها؟

كان شارل ستوو على وشك أن يعلن له أن غرسة الشاي ليست

للبيع، عندما عرض عليه الرجل سعراً فاحشاً.

- أعطيك منها عشرة آلاف يّ.

- هذا غير وارد.

- كن عاقلاً. لا يسعني أن أقدم لك عرضاً أفضل.

- ليست القضية قضية مال، سيد فورتون. لنختصر- الكلام. إذا

كنت راغباً بامتلاك غراس الشاي، ليس عليك سوى الذهاب لإحضارها

بنفسك.

بعد مضي تسع سنوات. كان روبيرت فورتون أول بريطاني يجلب
من داخل الصين، علاوة على غراس الشاي، خمسة وثمانين أخصائياً
صينياً. اصطحبهم معه إلى الهند، حيث كانوا، من دون شك، أصل ثورة
الشاي ونهاية احتكار إمبراطورية الصين لتجارته المزدهرة.
في العام ١٨٢٥، ظهر في لندن كتاب ثمين، يكشف عن أسرار
الشاي الصيني. كان اسمه "طريق الشاي والزهور".
كان موقعاً باسم روبيرت فورتون.

بعد نقاهة طويلة، قرر شارل ستوو العودة إلى لندن، وقضاء ما
تبقي من حياته هناك. كانت حرب الأفيون ما تزال تدور رحاها. أن
أوان الفرار. لن يعود إلى الصين أبداً. لن يرى لوان بعد الآن.
غادر ستوو الصين ذات صباح ربيعي. سافر على متن سفينة لا
تنقل الشاي ولا التوابل، الأسلحة ومعدّات الحرب فقط.
في كولومبو، عاودته الحمى. لتخفيف آلامه، نقلوه إلى مصحّ،
حيث توجب عليهم أن يعطوه عدة جرعات من المورفين.
كانت هذه آخر مرة يتذوق فيها الأفيون.

في لندن، التقى شارل ستوو بوالده من جديد، وتولى خلافته

بالتجارة التي كان يديرها بالقرب من منسنغ لان.

عمل كعادته، من مطلع النهار وحتى مغيب الشمس. وكان لا

يشرب شيئاً البتة إلا الشاي.

كان في الثالثة والثلاثين من العمر، وحياته أصبحت وراءه. كثيراً

ما كان يغلبه الحنين، وكان ذلك مثل لسان من زبد ينقض على صخرة

ذاكرته. كان يرتد إلى ماضيه ويفكر حينذاك بلوان، وبليلي الحب

السبع التي أمضاها برفقتها. كان لا يرى سوى طريق أخضر- طويل،

وذكريات مليئة بالعطور والملامسات والدخان والمطر. في النهاية، كان

يعود إلى الحاضر. ويبدو الأمر غريباً. غير أنه، شيئاً فشيئاً، خفت

جروحه، ثم شفيت.

لم يكن حاقداً على هذه المرأة. مع مرور الوقت، تعلم أن يحبها
وأن يراها أكثر روعة أيضاً. شيء من اليقين كان يتسرب إلى داخله
ويحمل له الصفاء. كان واثقاً أن حبه يكبر كل يوم حتى مماته. كان
ارتباطهما قصيراً جداً بحيث أن الشعلة فيه لم تتلاش قط. قدّمت له
لوان أجمل ما في الوجود: سحر اللحظات الأولى.

فضلاً عن ذلك، لم يكن لدى شارل ستوو شيء يأسف عليه،
فرحلته الطويلة فوق النهر المحرّم قادته من خضار الشاي الساحر إلى
سواد الأفيون. وجعلته يدرك أن الحياة أفيون لا نتعب منه أبداً.

من إصداراتنا في الرواية العالمية

* الجزيرة تحت البحر _ إيزابيل الليندي _ صالح علماني

* دفتر مايا _ إيزابيل الليندي _ صالح علماني

* حب _ إيزابيل الليندي _ صالح علماني

* قايين _ جوزيه ساراماغو _ صالح علماني

* أبناء الأيام _ إدواردو غوليانو _ صالح علماني

* لعبة نازع الأحشاء _ إيزابيل الليندي _ رفعت عطفة

* عداء الطائرة الورقية _ خالد حسيني _ منار فياض

* ألف شمس مشرقة _ خالد حسيني _ مها سعود

* ورددت الجبال الصدى _ خالد حسيني _ يارا البرازي

* ورددت الجبال الصدى _ خالد حسيني _ محمد حبيب

* كم تأخر الزمن _ جيمس كيلمان _ محمد حبيب

* الخوف من المرأيا _ طارق علي _ طلعت الشايب

* هوس العمق _ باتريك زوسكيند _ طلعت الشايب

* فتاة عادية _ آرثر ميللر _ طلعت الشايب

* أفيون _ ماكنانس فيرمن _ لينا بدر

* ساحة واشنطن _ هنري جيمس _ جاسم ديب

* أعود مع المطر _ تاكوجي ايشيكاوا _ راغدة خوري

* الدلاي لاما _ الدلاي لاما _ راغدة خوري

* ملعون دوستوفسكي _ عتيق رحيمي _ راغدة خوري

* حجر الصبر _ عتيق رحيمي _ راغدة خوري

* أغرب حكاية في حياتك _ ديفا كاروني _ راغدة خوري

* النور المتلاشي _ غونزالس _ راغدة خوري

* ناتالي أو البحث عن الرقة _ ديفيد فوينكس _ راغدة

خوري

* على شاطئ تشيسيل _ إيان ماكيوان _ راغدة خوري

* بيهروز - أجمل الأيام _ ابتسام منتظمي _ راغدة خوري

* اسم على طرف اللسان _ باسكال كينارد _ محمد

المزدويوي

من إصداراتنا في الدراسات الفكرية

والنقدية

* المفكرة - مذكرات _ جوزيه ساراماغو _ عدنان حسن

* تقشير بصلة - مذكرات _ غونتر غراس _ عدنان حسن

* جمالية الإبداع اللفظي _ ميخائيل باختين _ شكير نصر-

الدين

* استراتيجية الشكل _ لورون جيني _ نور الدين محقق

* التفكير في الرواية _ عبد الله المدغري _ إبراهيم أولحيان

* العذرية والثقافة _ مها حسين

* النص واستراتيجية التأويل _ صدوق نور الدين

* أبحاث نقدية _ شكير نصر الدين

* سياسة فوكو _ مصطفى الحسناوي

* الحياة والسلطة _ مصطفى الحسناوي

* أطراف الكتابة _ مصطفى الحسناوي

* شعرية المشهد _ محمد عليم

* تجليات الخطاب الشعري _ نجاح البطي

* شرفات متجاورة _ مجموعة _ إبراهيم أولحيان

هو طريق بألف عطر وأخطار ألف أيضاً؛ ذاك الذي يبدأ
من لندن لبلوغ بلاد الهند، ويتوه على نحو لا يمكن
تداركه داخل إمبراطورية الصين.

رحلة تدعى طريق الشاي.

للمرة الأولى، في العام ١٨٣٨، يذهب رجل مغامر في هذا
الطريق، مصمماً على كشف سر الشاي الأخضر والأزرق
والأبيض، أنواع غير معروفة في إنكلترا. يلتقي أثناء
رحلته ببييرل، التاجر الإيرلندي الثري، ووانغ، حارس
الوادي المقدس، ولوشين، إمبراطور الشاي غير المرئي،
ولوان، المرأة الصينية ذات العينين الزمرديتين، التي
تحمل فوق كتفها وشم زهرة الخشخاش.

في نهاية سعيه، كان هناك الأفيون. حب لم يختره.

